

عبد المنعم محمد الجبري

السيرة النبوية وأوهام المستشرقين

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم
ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم فى لحن القول ،
والله يعلم أعمالكم » •

« صدق الله العظيم »



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمدك اللهم لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك ،
وأصلى وأسلم وأبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان
الى يوم الدين ..

وبعد ..

فان شر ما تبتلى به شعوبنا الاسلامية المعاصرة استسلامها لدعوى أنها
شعوب متخلفة فكريا وحضاريا واقتصاديا ، واكتفاؤها من باقات الاحترام ،
بأن يستبدل بالكلمة الدالة على التخلف والجمود نقيضها ، فتسمى بالدول
« النامية » .. وهذا بدوره يسلمها الى رفع المستشرقين ، وأمثالهم من
علماء ومفكرى الغرب الى مصاف القداسة لأشخاصهم ، ولما ييثونه فى
الجماعات البشرية من علومهم وأفكارهم مهما كانت .

وباسم العلم والاستشراق ، شوهت كثير من الحقائق التاريخية ، وفى
مقدمتها ما يتصل بتاريخ الرسول محمد ﷺ .

وسوف اتناول فى هذه الدراسة أسلوب المستشرقين الحاقده فى صراحة
أو مع الخفاء ، كما تناولت ذكر كتاب السيرة ومترجمى القرآن من
المستشرقين . لأن معظم مترجمى القرآن قدموا لذلك بمقدمة عن السيرة
النبيهية العطرة . وبعضهم كان هدفه من الترجمة للقرآن هو عرض الجانب
الفلسفى والايديولوجى ، باعتبار هذا قطاعا هاما فى دراسة تاريخ الرسول
وتاريخ الفتوح الاسلامية ، وتحدثت عن بعض من أسلمهم البحث الى
الاسلام . وعمن كانوا منصفين للرسول ورسالته فى بعض النواحي ، وعن
المهتمين بنشر كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد كاتب الواقدى .

ثم اتناول بيان أهم النقاط المشتركة التى ترددت فى كتب المستشرقين ،

نحريفا للحقيقة ، وأبين وجه الحق فيها • ومنها دعوى أن محمدا صانع
الاسلام •• واتهامه بأنه دموى المزاج •• ودعوى بشرية القرآن •• وأبين
اضطراب « بودلى » فى ذلك ••

وسيجد القارئ كثيرا من الشبهات لم تذكر فى هذه الدراسة ، وذلك
لذكرى لها فى نقضى لكتاب المستشرق الفرنسى « م • سفارى » الذى أفردته
بالدراسة •

وقد أردت بتقديم هذه الدراسة – فوق تقديم الحقيقة – تدريب من لم
يسبروا غور خصوم الاسلام على القراءة الواعية لهؤلاء الخصوم الضاحكين
لنا ، وفى قلوبهم منا مرض •

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه • •

عبد المتعال الجبرى

الفصل الأول

أَسْلُوبُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَحَقْدُهُمْ

- ماذا يراد بالاستشراق والمستشرقين ؟
- مستشرقو العصور الوسطى .
- بعد منتصف القرن التاسع عشر .
- التجاهل للرسول والرسالة .
- الطعن غير المباشر .

ماذا يراد بالاستشراق والمستشرقين ؟

يراد بالاستشراق دراسة كل شئ عن الشرق ، لغاته القديمة ، ولهجاته الحديثة ، وتاريخه وأساطيره وطباعه ، وعاداته ، وأديانه ، ومعادنه ، وكل ما يتصل به من الناس والحيوان والنبات والمناخ والتربة . ومكونات الشخصية .. وعوامل الفرقة .

ويراد بالمستشرقين أولئك الذين لهم اهتمامات جادة بهذه الدراسات .

● كيف ولد الاستشراق ؟

تسرب الاسلام الى أوروبا فى نهايات القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) عن طريق فتح بلاد الأندلس التى يطلق عليها الآن اسم إسبانيا والبرتغال .

وكان المسلمون قد فتحوا مساجدهم ومجالسهم العلمية لكل من أراد العلم ، والعلم فى عرف المسلمين الأوائل كان يعنى العلوم الشرعية ، والعربية ، والاجتماعية ، والكونية ، والتقنية ، لا يضمنون بالفنون الحضارية على أحد من النصارى أو اليهود ، أو غيرهم من البشر ، باعتبار الاسلام رسالة الارتقاء بالانسان - أى انسان - الى مستوى أفضل ، عقليا وماديا ، فكان يفد الى الأندلس كثير من الشباب ، من كافة أنحاء أوروبا ليغتربوا من علوم المسلمين .

واستهوت علوم المسلمين وأخلاقهم وعاداتهم كثيرين من هؤلاء الوافدين الى الاسلام . فخشيت الكنيسة الغربية على مستقبلها ، فعملت على الحيلولة بين الشباب وبين بلاد الأندلس وجامعاتها . وعمدت الى اعداد طائفة من الرهبان والقساوسة لدراسة العلوم الشرقية - يعنى الاسلامية وغيرها مما يدرسه أهل المشرق - حتى يمكنهم جذب الشباب الى حلقات مماثلة يكون زمامها بيد الكنيسة ، ويمكن من خلالها تشويه صورة الاسلام لدى الدارسين .

ومن ثم كان الارتباط الأول بين العملية الاستشراقية وبين عملية محاربة الاسلام بالكتابة ، والمحاضرة ، والقصة ، والأغنية .. وسائر وسائل الاعلام .

* * *

● أسلوب المستشرقين فى حقدهم :

ان كتابة المستشرقين عن الاسلام ورسوله - بوجه عام - قد اتجهت اتجاhein :

١ - اتجاه كتابهم فى العصور الوسطى ، وهو سافر بالخصومة ، متبجح .

٢ - واتجاه كتابهم فى العصر الحديث ، وفيه التواء وغموض ، الا ما كان فى كتابة بعض الشيوعيين المعاصرين ، وذلك ابتغاء استرضاء الحزب الشيوعى الداعى الى الالحاد واسقاط كرامة الأنبياء ومنزلة الأديان من القلوب ، وتجرىء للناس على رسل الله ورسالات الأنبياء من هجوم وقح وغير علمى .

* * *

● أسلوبهم فى العصور الوسطى :

وفى تلك العصور بدأ عهد الاستشراق ، وقد جنح الكتاب فى تلك الآونة وعلى رأسهم قاداتهم من الرهبان والقساوسة يصورون الاسلام ورسوله فى صورة مشوهة ، تقبح الاسلام ورسوله فى نظر القراء .

فهى كتابة تستهدف اقامة السدود والأسوار النفسية والوجدانية حول المسيحيين ، حماية لهم من التفكير فى الاسلام والبحث عنه فى مراجعة الأصلية الصحيحة .

ويرجع كل هذا التهور والتبجح الى قلة الاطلاع فى الأصل . هذا لما يشب ذلك سوء قصد ، لأن الغربى لا يبرح عدوا للشرقى ورقبها له . والنادر لا يعتد به (١) ..

(١) الرد على الأدب الجاهلى ، تأليف شكيب أرسلان ص ١٩٩ - ٢٠٠

وانك لترى هذه العداوة اكثر وضوحا فى بلادهم ، فقد زرت أمريكا وشاهدت على شاشة التلفاز يوما ما يجرى فى الكنيسة يوم الأحد وخارجها . من عرض أفلام تحذر المسيحيين من نهضة علمية عربية تجعلهم قادرين على دك حضارة نيويورك وباريس بالصواريخ العربية الاسلامية .

ودخلت أحد المطاعم فوجدت عند كل منضدة للطعام قد علق بجوارها صورة للدرع الذى كان مستخدما فى الحروب الصليبية وعليه بالرسوم البارزة صور الصليب .

بل ان فيلم اعداء المسيحية الذى عرضه التلفاز عن مخاوف النصارى من اليقظة العربية الاسلامية لا يرى الحل الا فى التعاون مع الشيوعية لمواجهة الاسلام ، وتكثيف عمليات التبشير وسط الشعوب الفقيرة بتربية وتعليم اطفالها منذ سن الحضانة على النصرانية .

وقد جاء فى موسوعة « لاروس » الفرنسية خلال العرض لأراء كتاب المسيحية الى النصف الاول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نيل وعندما لم يجدوا ما يعيبه - اتجهوا الى السباب والكذب - فقالوا مثلا : « بقى محمد مع ذلك ساحرا ممعنا فى فساد الخلق . لص نياق . كاردينالا . لم ينجح فى الوصول الى كرسى البابوية فاخترع ديننا جديدا لينتقم من زملائه . واستولى القصاص الخيالى والخليع على سيرته .

وسيرة باهومية « محمد » تكاد تقيم ادبا من هذا النوع . وقصة محمد التى نشرها رينو وفرانيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التى كانت لدى اهل العصور الوسطى عنه . والتى تتناقض مع الثوابت التاريخية . فقد عرف بالامانة والصدق وكريم الخلال فى الجاهلية والاسلام .. وكان بعيدا عن كرسى البابوية . وما كان للنصارى فى مكة عدد يذكر .

وفى القرن السابع عشر نظر « بيل » فى تاريخ أبى القرآن نظرة تاريخية . مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه . على أنه يعترف مع ذلك بأن النظام الخلقى والاجتماعى الذى اقامه محمد لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات .

وقال اميل درمنجم الفرنسى فى كتابه « حياة محمد » (ص ١٣٥ وما بعدها) : « لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم - بطبيعة الحال - وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوقروا الاسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم - فيما خلا « جان داماسين » - مؤونة دراسته . ولم يحارب الكتاب والنظامون مسلمى الأندلس الا بأسخف المثالب ، فقد زعموا أن محمدا لص نياق ، وزعموه متهاككا على النهو ، وزعموه ساحرا ، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق ، بل زعموه قسا رومانيا مغیظا محققا أن لم ينتخب لكرسى البابوية . . وحسبه بعضهم الها زائفا يقرب له عباده الضحايا البشرية .

وان « جبيردونجن » نفسه - وهو رجل جد - ليفقد توازنه - فيذكر 'ن محمدا مات فى نوبة سكر بين ، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث ، وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حرم الخمر وحرّم لحم ذلك الحيوان (٢) .

« وذهبت الأغنيات الى حد أن جعلت محمدا صنما من ذهب ، وجعلت المساجد الاسلامية بראى ملائ بالتماثيل والصور . وقد تحدث واضع اغنية « أنطاكية » حديث من رأى صنم « ماحوم » مصبوعا من ذهب ومن فضة خالصين ، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما اغنية « رولان » التى تصور فرسان « شارلمان » يحطمون الأوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثا مكونا من : ترفاجان ، وماهوم ، وأبولون . وتحسب « قصة محمد » أن الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج » (٣) .

(٢) هذه صورة تنم عن الجهل المطبق لأن تحريم الخمر ولحم الخنزير كان فى عهد النبى وهو الذى أخبرنا بتحريم الله لهما . ولم يحرمهما المسلمون من بعده . وفى القرآن آيات التحريم « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » (المائدة : ٣) .

(٣) أرايت كيف يتعاون الفنانون فى تشويه سيرة الرسول ودينه فيما يضعونه من أغان ؟

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ « رودلف دلوهم » الى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز ، وفيفس ، ومرانشي ، وهوتنجر ، وببلياندر ، وبريدو وغيرهم ، فوصفوا محمدا بأنه دجال ، والاسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان ، ووصفوا المسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيج من السخافات . وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجد في أمر هذا مبلغ سخافته .

« ومع ذلك فان بيير باسكال من الذين توسعوا في الدراسات الاسلامية في القرن الرابع عشر . ومن قبله بيير المحترم « فنرايل » مؤلف أول رسالة غربية ضد الاسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر الى اللاتينية . وقد وصف انوسان الثامن محمدا يوما بأنه « عدو المسيح » أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمدا الا هرطيقا (٤) . وكان لـ « ريمون ليون » في القرن الرابع عشر ، ولـ « غليوم بستل » في القرن السادس عشر ولـ « رولان » و « جانبيه » في القرن الثامن عشر ، وللقسيس « دبرجلى » ولـ « رينان » في القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة . على ان الكونت بولنفلييه وشول كوسان دبسفال ودوزى سبرنجر وبارتلمى سانتيلير ودكاستري وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الاجمال - انصافا للاسلام ونبيه . ويشيدون - في بعض الأحيان - بهما . مع ذلك فان دورتي يتحدث في سنة ١٨٧٦ عن محمد الصادق العف النظيف فيقول نقيض هذا في أسلوب سباب ، لا علم ، كما طعن عليه « فوستر » من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ . وما يزال للاسلام حتى اليوم محاربون متحمسون » .

● مرد الخصومة :

ومرد هذه الخصومة بين الاسلام والمسيحية راجع الى جهل الغرب بحقيقة الاسلام ، وبسيرة النبي ﷺ .

كما ان حماة المسيحية حين شعروا بأنها دين لا يوائم طبيعة الغرب

(٤) الهرطيق : المجادل المتفلسف - والهرطقة : الجدل غير المثمر ، والمغالطات ، والجدل بالباطل .

الذى عاش الوف السنين على تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير (٥) والضنك وسوء الحال . وحين احسوا بأن الغرب سيفلت من المسيحية الى اقرب دين للفطرة وهو الاسلام ، أسرعوا الى محاربته وأسرفوا فيما اسراف ، وأرادوا أن يسقطوا عن نفس الشخصية المسيحية عار سقوط هرقل وحضارته تحت سنانك الخيل (٦) الاسلامية بافتراء الانحطاط وشتى المثالب (٧) على محمد ورسالته واتباعه - دفاعا لا شعوريا عن النفس ، ونتيجة لمركب عقدة الاستخذاء والغرور والجهل ، فكان ما رأيناه من العداء السافر فى الأغاني ، والعظة الأسبوعية ، والقصة ، والتأليف التاريخى .

وقد أدى هذا اللون من الكتابة نتائجه فى صفوف الغربيين ، اذ صرفهم عن دراسة الاسلام والتفكير فيه . وجمد العوام على مسيحياتهم ، ووجه الباحثين عن الروح (٨) الروحى والهدوء النفسى وناشدى (٩) فى السعادة وبردها بعيدا عن لهب الصراع المادى الدائر الرحى - الى الديانات الهندية والصينية بعيدا عن الروحانية المسيحية التى أصبحت فى قفص الاتهام بعد كثرة الانشقاقات المذهبية والثورات الاصلاحية فظهرت « الثيوزوفية » على يد مدام بلافاتسكى . وقد اقتبستها من البوذية وسيلة للاخاء العالمى . وما لبثت أن أصبحت مذاهب ثلاثة عقب موتها (١٠) واستغل المستعمر العامة نتيجة هذه المفتريات لغزو العالم الاسلامى .

على أن هذا الأسلوب لم يكن ذا اثر سىء - بصورة عامة - عند المسلمين الذين لا يقرأون هذه المفتريات ، بل ولا عند القلة الذين اتيج لهم أن يستمعوا لها أو يقرأوها ، ذلك لأن الايمان المستقر بين جوانحهم ما كانت لتزحزحه مفتريات باطلة لا دليل عليها ، بل ان الاغراق فى الافتراءات

(٥) شدة البرد .

(٦) السنبك - بضم السين والباء - : طرف الحافر .

(٧) العايب .

(٨) الروح - بفتح الراء - : الراحة والنسيم .

(٩) طلاب ، والباحثون عن

(١٠) حياة محمد . ط ٢ ص ٣٠١٢ .

على الاسلام ورسوله بعث فى بعض المستشرقين طموحا الى تبوا مراكز
ريادة حرية البحث وحرية الكلمة فأخذوا يكتبون عن بعض الحقائق
المشرقة فى جوانب الاسلام وتاريخ الرسالة ، ولم يذروا استرضاء الجماهير
المتعصبة فكان لهم من الغمزات واللمزات شئ يقل أو أكثر حسب حاجة
الكاتب الى رواج بضاعته . وأشد المستشرقين حدة وحقدا على الاسلام
ورسوله وتاريخه الفرنسيون والكاثوليك الذين تحتضنهم فى العالم جمهورية
فرنسا ، ومن أشهرهم أرنست رينان وكيمون وهانوتو وفولتير ، وهم بعد
عصر النهضة .

ومن هؤلاء السافرين بالخصومة والافتراء :

١ - المستشرق « كازيميرسكى » الذى تولى الرد عليه الأستاذ
أبو الوفا محمد درويش .

٢ - والمستشرقة الأنسة « لورا هيلين سوبريدج » الانجليزية فى كتابها
« أحلام المرأة ورسالتها » . وقد كتب مقدمته أسقف لندن ، ومنهم المستر
« كاش » فى كتابه « العالم الاسلامى فى ثورة » ، وقد زعم فيه أننا نحن
المسلمين نضفى على محمد صلى الله عليه وسلم - نسخة مسيحية ، وقد
تولى الرد عليه العلامة « خ . كمال الدين » فى كتابه « المثل
الأعلى فى الأنبياء » ، وقد ترجمه « أمين محمود الشريف » .

٣ - ومنهم المستشرق اليهودى « داود صمويل مرجليوث » المتوفى
عام ١٩٤٠ .

٤ - ومنهم « م . سفارى » الذى تابعت نقد مفترياته فى صلب كتابه
« مختصر حياة محمد » فى هذه الدراسة . وغير هؤلاء كثيرون . وأمثالهم
فى عصرنا هذا كثيرون ولكنهم لا يستعلنون فى المجتمعات الاسلامية
بمفترياتهم الا عندما يحسون بضعف المجتمع المسلم سياسيا واقتصاديا
وعسكريا وعلميا كما حدث اخيرا فى اندونيسيا . وعندما يسقط الحكم فى
قبضة حكام ضعاف العقيدة أو الذمم ، أو فاقدى التصور الاسلامى .

● بعد منتصف القرن التاسع عشر :

وبعد عصر النهضة كانت يقظة فكرية ، وكان حرص على تقصى الحقائق واكتشاف المجهول من الآثار سواء المظمور تحت الأرض من النقوش والعاديات كالتى تولاهما من سموا علماء الآثار ، أو المسطور المغمور المطروح فى آفاق النسيان ، أو فى زوايا الاهمال بالزوايا أو التكايا ومكتبات الافراد . من نواذر المخطوطات المبعثرة فى العالم الاسلامى جميعه مكتوبا بالعربية أو الفارسية أو الهندية أو التركية .

وهؤلاء المنقبون من أمثال « جوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » ، و « دوزى » فى كتابه « الاسلام فى الأندلس » و « سيديو » فى كتابه « فضل العرب على الحضارة الأوروبية فى القرن التاسع عشر » و « كارليل » فى كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ، وقد اتجه اتجاهه وعلى منهجه « هجنز » و « بفونبرت » و « بوزورث سيمث » فى انجلترا و « كرهل » و « وجريمنس » فى ألمانيا ، ومثلهم « اللورد هدلى » الملقب بـ « سيف الرحمن رحمة الله فاروق » الذى أسلم ، وتوفى عام ١٩٣٥ ، ومستر « كاش » . والكاتب الإيطالى « كيتانى » الذى هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها علماء النصارى على الاسلام . هؤلاء غالبا ما كان يدفعهم الى البحث وقول كلمة الحق الا الرغبة فى اظهار معلومات مجهولة هى فى عداد الآثار ، ويغيبون عن ورثة اهل هذه الآثار والكنوز الفكرية المظمورة ، فقد مات أبطالها وخلفوا من بعدهم ذرية ضعفاء فى مجتمعات أصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، ثم لأن جل هؤلاء الباحثين - الا من أسلموا - كانوا متحليين من الأديان ثائرين عليها ، فهم يدرسونها للعلم وحده . ولم يدر بخلدهم أن ما يكتبون سيصل يوما الى المسلمين ، فيكون شهادة من اعداء الاسلام لمجدهم الغابر ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، فيعتزون بهذه الشهادات ، وينشرونها لتحمى الشخصية الاسلامية من التمزق ، والاحساس بالضياح والخيبة ، ولتحمى الشخصية الاسلامية كذلك من الشعور بالنقص شعورا أودى بالبعض الى الهاوية ، واللقى بهم فى مهامة التقليد للفرنجة حتى كفروا بأنفسهم وبتقاليدهم وامتهم ، ورضوا

لأنفسهم أن يكونوا آلات ومطايا للغربيين ، بدلا من أن يكونوا ذوى كرامة شخصية وقومية - غدوا أبواق الاستعمار والصليبية والصهيونية .

لقد تجلّى أخطر دور لعبه المستشرقون فى حرب الاسلام عمليا فى بناء المدارس التى يعلمون فيها الناشئة من أبناء المسلمين ، واستغلال مهنة الطب والتمريض ، وعاشوا المسلمين العرب فى بلادهم ، فكانوا يحببون اليهم حضارة أوروبا الزائفة ، ويدعون الى الاختلاط والتبرج والانحلال . وينشرون المذاهب الهجينة كالصليبية والعلمانية والوجودية ، ومن افقتن بهم لقنوه انكار نبوة محمد ﷺ ونبذ الاسلام والتشكيك فى القرآن . ولسنا نجد مؤلفا مسلما ارتد عن دينه الا وله صلة بالصليبيين (١١) .

ثم خلف من بعدهم خلف ارادوا حرب الفكر الاسلامى بصور خفية مدروسة ، وكان لهذا اساليب شتى ، ليس هنا مجال دراستها ، فموضعها كتابنا « الاستشراق وجه جديد للحروب الصليبية » .



● التجاهل للرسول والرسالة :

كثيرا ما تجاهل كبار الكتاب الغربيين - فى مواقف العظمة - المقارنة بين شعوب ، أو أديان ، أو فلسفات . قد يكون للاسلام فيها رأى . ويلاحظ انهم لا يكتبون الا القليل والتافه عن الاسلام والرسول ، حتى يبدو الدين غير جدير بالوقوف عنده .

فمثلا : الكاتب الأمريكى « ف . س . ك . نوثورب » فى دراسته التى سماها « بحث فى تفهم العالم » لم يتناول العرب والمسلمين بالذكر الا فى اثنتى عشرة صفحة فقط من ٤٩٦ صفحة ، مع ان المسلمين والعرب يمثلون سبع العالم .

وكذا المؤرخ « برتراند رسل » فى كتابه « تاريخ الفلسفة العربية » لم

(١١) محمد النايى فى « دراسات فى السيرة » بمجلة المجتمع العدد ٢٣٩ - صفر ١٣٩٥ هـ - مارس ١٩٧٥ م .

يخصص للإسلام ونبيه منه الا ١٦ صفحة متفرقة من مجموع صفحات الكتاب التى يبلغ عددها ٨١٦ صفحة (١٢) .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ، ليتسع المجال لتصوير النبى « محمد » عليه الصلاة والسلام ، خلاف صورته التاريخية ، وتتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وأحرقت نسخه العربية فى البندقية سنة ١٣٥٠ م ، وحرم بابا الاسكندرية طبعه وترجمته .

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت ترجمات القرآن تشفع بمقدمات ، أو تعليقات ، أو تذييلات للرد على القرآن ، أو تجريح النبى صلى الله عليه وسلم (١٣) .

وتقع الموسوعة الأمريكية التى تدعى «كوميتون بريكتور اينسيكلوبيديا» فى خمسة عشر مجلدا (طبعة ١٩٦٦) ، وقد أوردت معلومات عن الاسلام باعتباره دينا فى ٧٢ أسطر فقط مع رسم لمئذنة مصرية قديمة ، فى حين أن الموسوعة نفسها أوردت أربع صفحات كاملة من القطع الكبير عن اليهودية ، مع رسوم بيانية واضحة ، وعن اسرائيل أوردت ثلاث صفحات تقريبا ، مع خرائط ورسوم بيانية .

أما عن لبنان فقد وقعت أحداث ثورة ١٩٥٨ ، وذكرت جنود الأسطول الأمريكى السادس ونشرت دبابات أمريكية أمام فندق سان جورج كمعلم من معالم البلد الرئيسية .



● الالحاد والتشكيك فى النبوات :

ومن المستشرقين ملاحدة يكفرون بالاديان وبالرسل جملة ، فمهاجمتهم للرسول محمد ﷺ ليست الا بغية التجريح لمبدأ « ديانة ورسل واله للعالمين » ، لا البحث عن الحقيقة التاريخية أو العلمية ، فهم ينكرون عيسى ويتهمون به بالجنون ، بل ويقولون انه وأمثاله : كموسى وهارون وسليمان وداوود أشخاص غير تاريخيين .

(١٢) الطبعة الثالثة ، لندن سنة ١٩٤٨ .

(١٣) المستشرقون والاسلام ص ١٢٨ .

ومن هؤلاء الشاعر المشهور « فولتير » الذى هاجم الكهنة واتهمهم بالوثنية فى مسرحيته الأولى التى اشتهرت باسم « أوديب » عام ١٧١٨ ، ثم هاجم الأنبياء فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم بمسرحيته « التعصب » عام ١٧٤١ وأهداها الى البابا « بنوا الرابع عشر » للتمويه بأنه لا يريد الا محاربة محمد وحده كما قال النقاد ، ولكن اختياره لشخص محمد من بين الأنبياء - وما أكثر أنبياء بنى اسرائيل - يشير الى كامن مزيد من احتقاره للاسلام ورسوله .

والعجب أن نرى باكستانيا فى ندوة اسلامية عقدت فى لاهور فى نهاية ديسمبر ١٩٥٧ ويناير ١٩٥٨ وقد وقف ينكر النبوات وبخاصة نبوة محمد ﷺ زاعما أنه كان يعلم قصص الأنبياء ممن كانوا فى الجزيرة من النصارى واليهود (١٤) ٠٠٠ وقد جهل الباكستانى - أو كفر - بقوله تعالى عن قصص القرآن « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا انيك هذا القرآن » (١٥) وقوله سبحانه: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك» (١٦) . وقوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (١٧) ، كما انكر الباكستانى اختصاص الوحي بالأنبياء ، وجعل أن الوحي بمعنى الالهام معنى لغوى كالهام الحيوان ما فيه صلاح حياته ومعاشه ، وأما الوحي السماوى فاصطلاح شرعى انفرد به الأنبياء « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » (١٨) .

ويلج المستشرقون على نزع ثوب النبوة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والباسه ثوب البشرية فى صورتها الحيوانية الدنيا لأدنى مناسبة ، وبصورة خفية كما سنرى فى حديث « سفارى » عن كتاب هرقل وعن وساطة أبى سفيان فى فتح مكة . وفى المؤاخاة بعد الهجرة ، وفى زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وكما فى تصوير «سفارى» للأمهات المؤمنين عند ذكره زواج ريحانة رضى الله عنها .

-
- (١٤) المستشرقون والاسلام ص ٥٨٥ .
 (١٥) يوسف : ٣ .
 (١٦) آل عمران : ٤٤ .
 (١٧) هود : ٤٩ .
 (١٨) الشورى : ٥١ .

وهذا التشكيك تسرب الى كل المقررات الاسلامية ، حتى الأمجاد التاريخية التى اطمأنت بها واليها قلوب المسلمين ، وقد جرى تلامذة المستشرقين فى هذا المضمار شوطا كبيرا ، تلمح هذا فيما كتبه طه حسين ، وعلى سبيل المثال فى كتاب الشيخان يقول : « واكاد أجزم ، وانى لأشك » - الى آخر هذه العبارات الماكرة لزلزلة اليقين .

* * *

● الطعن غير المباشر :

قد يعتمد المستشرق الى الكتابة عن محمد ﷺ ورسالاته تحت عنوان دراسة مغايرة لموضوع « محمد ورسالته » ولكنه ينزلق الى الموضوع لأدنى ملابسة ، فمثلا المستشرق الروسى « اغناطيوس كراتشكوفسكى » فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب » الذى ترجمه الدكتور صلاح الدين هاشم ونشرته الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية يقول : « ان القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع وهى تمثل نموذجا عاما لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال » (١٩) . ولا شك أن كلامه باطل للأمور :

أولا : لأن دارس القرآن يرى فيه معلومات هى اجابة عن أسئلة جهلها العرب « ويسألونك عن الروح ٠٠ » (٢٠) ، « ويسألونك عن الجبال » (٢١) ، « يسألونك عن الالهة ٠٠ » (٢٢) ، « يسألونك ماذا ينطقون » (٢٣) ، « يسألونك ماذا أحل لهم ٠٠ » (٢٤) ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ٠٠ » (٢٥) .

ثانيا : لأن بعض العرب لم يكونوا على مستوى ادراك النصوص القرآنية ، فكانت تنزل الآيات تبسط شرح المراد بسبب انخفاض مستواهم

- | | |
|---------------------|----------------------------|
| (٢٠) الاسراء : ٨٥ . | (١٩) المرجع السابق ص ١٨٦ . |
| (٢٢) البقرة : ١٨٩ . | (٢١) طه : ١٠٥ . |
| (٢٤) المائدة : ٤ . | (٢٣) البقرة : ٢١٥ . |
| | (٢٥) النساء : ١٧٦ . |

عن مستوى اللغة القرآنية ، كالرجل الذى لم يفهم المراد من قوله تعالى :
« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » (٢٦) ،
فنزل قوله سبحانه : « من الفجر » ليبين أن لفظ الخيط كناية عن الليل
والنهار وليس حقيقة العقال الأبيض والأسود .

ثالثا : لأنه لو كانت هذه المعلومات القرآنية فى مستوى الثقافة
العامة لكان المتعلمون وكتاب ديوان كسرى وقيصر والرهبان ، أقدر على
صوغ كتاب أرفع من القرآن وأغزر مادة - بفضل امتياز التعلم على الأمية
التي كان عليها محمد رسول الله - ولكن هذا هو ما لم يحدث بالرغم
من المعارضة للنبي ، ومن تحديه نكافة الناس أن يأتوا بقرآن مثله .

وهكذا كان « اغناطيوس » يذكر المعلومات الفنية ويخلطها بأخرى
تزرع الشكوك فى أن القرآن وحى من الله انزله على محمد صلى الله عليه
وسلم - والمستشرق - بحسبه أن يجعل فى الكتاب كله نقطة أو نقطتين من
السم غارقتين فى العسل ، لأنهم لا يصدرن كتابا واحدا ، وانما يصدرن
بالمئات توزع فيها السموم المنوعة . فتترسب فى المجتمع الاسلامى شيئا
فشيئا حتى تسمى ركاما من الضباب الحاجب عن رؤية الحقيقة الاسلامية .

وقد أثار الكاتب انتباه قرائه الى أن بالقرآن مصطلحات جغرافية
موجودة بالكتب السماوية السابقة ، ليوقع فى الروع أنه مسروق منها ،
وتناسى أن القرآن نفسه قال عن ذاته « مصدقا لما بين يديه من الكتاب » (٢٧)،
بل ان المنطق السليم ليوجب فى هذه الحالة أن نقول : ان تشابه النصوص
فى الاسلام والاديان قبله دليل على أن الدين من عند الله وأن الاسلام
دين حق لأن الله يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » (٢٨) .

واذا كان الله قد تكفل بأرزاق الناس وجعلهم شركاء فى رزق
اجسامهم . فهل يفرق - سبحانه - بينهم فى رزق الروح وغذائها . هذا

(٢٧) المائدة : ٤٨ .

(٢٦) البقرة : ١٨٧ .

(٢٨) الشورى : ١٣ .

إذا سلمنا بأوجه الشبه - وما اقلها . . وما اكثر ما خالف فيه القرآن الكتاب المقدس خلافا جذريا .

وفى سورة يوسف عليه السلام امثلة كثيرة خالف فيها القرآن التوراة تعد بالعشرات قد استقصاها مالك نبي المفكر الجزائري رحمه الله فى كتابه « الظاهرة القرآنية » فالتوراة مثلا قالت : ان اخوة يوسف ركبوا الحمير الى مصر ، بينما القرآن تحدث عن العير فى الرحلة . . وهى سفينة الصحراء فى مثل هذه الاسفار الصحراوية الطويلة . . وغير ذلك كثير .

* * *

الفصل الثاني

مترجمو القرآن وكتاب السيرة

- كتاب السيرة ومترجمو القرآن •
- أشهر كتاب السيرة •
- مستشرقون أسلموا •
- طبعة كتابة المسيحى •
- المهتمون بالطبقات الكبرى •

كتاب السيرة ومترجمو القرآن

● لماذا اهتموا بالتاريخ والسيرة ؟

اهتم كثير من المستشرقين بالتاريخ الاسلامى ، وبخاصة سيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك لاعتبارات كثيرة .

وفى مقدمة تلك الاعتبارات ان التاريخ يمنحنا القدرة على تصور مسار الحركة الاسلامية ، ويوقفنا على اسباب المد والجزر فى محيط الفتح الاسلامى ، فمن كان مؤمنا استطاع ان ينتفع بالتاريخ فى ربط حاضره بماضيه ، متجنباً العوائق ، ومن كان خصما للاسلام عرف بدراسته للتاريخ الاسلامى من أين تؤكل الكتف فى غزوه للعالم الاسلامى ، ومواجهته لدين الاسلام ، وهذا ما حدا بمعهد الاستشراق بالجامعة العبرية التى أسست عام ١٩٢٥ الى الحض على اصدار « أنساب الأشراف » للبلاذرى . وحدا بعلماء الاسلام القدماء الى اعتبار دراسة التاريخ الاسلامى بوجه خاص ، والتاريخ العام بوجه عام من العلوم الشرعية ، وحدا بالامام حسن البنا فى المعسكر الريادى الكشفى الذى أقامه حوالى سنة ١٩٣٨ بالدخيلة فى الاسكندرية لتربية كوادر للدعوة الى أن يجعل من بين البرنامج : دراسة لتاريخ الصراع السياسى بين الغرب والدول الاسلامية ، يقوم بالقائتها الامام نفسه ، الى جانب حلقات التفسير والتأمل فى القرآن الذى يتلوه فى الصلاة بما فيه من قصص وتشريعات ، ويجعل للمشكلة الفلسطينية حلقات يتولى امرها مندوب الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر . . . وقائد حركة تحرير فلسطين من براثن الانجليز واليهود . . . وذلك لأهمية التاريخ .

* * *

● لماذا اهتموا بالترجمة للقرآن ؟

وبما أن القرآن اصدق كتاب صور حياة النبى محمد ﷺ ، وصور طبيعة التكوين للمجتمع الاسلامى الفاتح ، كما سجل المبادئ التى على

أساسها أقيم البنيان الاسلامى ، فقد عنى بترجمته الى غير العربية كثيرون من المستشرقين والقساوسة . ومعظم هذه الترجمات فيها مغالطات ، وبين يدى العديد من هذه الترجمات تلخيص واف لسيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام أو للنظم الاسلامية .

بل ان هذه الترجمات كثيرا ما تسمى خطأ باسم « قران محمد » وما هو بقرآن محمد ، وانما هو قرآن كريم لرب العالمين ، وبعضهم يسميه كذلك باعتباره منهج حياة الرسول وفلسفته فى الحياة . . . وهؤلاء بهذا الاعتبار يقتربون من الحقيقة التى تروى فى كتب السنة عن عبد الله ابن الزبير بن العوام عندما سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قائلا : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : أما قرأت القرآن ؟ قال : بلى . . قرأته ، قالت : كان خلقه القرآن .

● ترجمة مختارات :

وبعض هذه الترجمات ترجمات لسور كسورة يوسف عليه السلام ويسمى المترجم « قصة يوسف » كـ «توماس ايربىنى» ، أو لجزء أو أكثر من القرآن - أو لبعض المختارات الموضوعية ، وممن فعل ذلك « ادوارد مونتيه » و « ر . دوزى » و « ج . س . ماردروس » ، وقد ترجم ٦٢ سورة ، و « هنرى بيريس » و « هنرى مرسية » .

ومن المقتطفات الموضوعية ما ترجمه « ج . بارتيليمى سانت هيلبر » - وهو مستشرق فرنسى - تحت عنوان : « محمد والقرآن » ، وبه الآيات المختارة مجموعة طبقا للموضوعات ، وقد طبع سنة ١٨٦٥ . كما قام المستشرق « لابوم » بترجمة للآيات رتبها موضوعيا كذلك بصورة أوسع ، وقد اعتمد فى ترجمته على ترجمة القرآن لـ « كازيميرسكى » .

ومن مترجمى مختارات من القرآن كذلك « توماس باللنتاين أيرفنج » فى ١٧١ صفحة ، وكذلك ممن ترجموا القرآن حسب اختيارهم « سير ولیم موير » له ترجمة بالانجليزية لسبعة أجزاء (١) .

(١) طبعت فى لندن سنة ١٨٨٠ و سنة ١٨٨٢

وكذا مختارات من القرآن لـ « ادوارد وليام لين » ، بترتيب موضوعى مع تفسيرات متداخلة مع الترجمة .

ومختارات بعنوان : « القرآن » ترجمة « ماتن ك . شيرمر هورن » .
ومختارات من القرآن لـ « جون مردوك » ، سبقت الترجمة بمقدمة ومذكرات شارحة ٠٠ وقد طبع عامى ١٨٩٦ ، ١٩٠٢ لحساب جمعية الادب المسيحى فى لندن .

وهناك «جواهر القرآن» ترجمة لمقتطفات قام بها «تيودور ماكسيليان» ، و «فون كيلار» ، وكذلك «القرآن المختصر» لـ «جورج ماميشيشولانسا»

ومختارات من القرآن ، والقرآن مفسرا (فى مجلدين) ترجمة « ا . ج . اربيرى » ، وسور مختارة من القرآن لـ « آرثر جيفرى » فى ٢٣٢ صفحة ودين القرآن ، لـ « آرثر وولاستون » فى ٧٠ صفحة - وإخلاقيات الشرق مستخلصة من قرآن محمد لـ « جوزيفوس تيل » ، وهى مقتطفات مرتبة بالحروف الأبجدية حسب الموضوعات ، وهى فى ٩٦ صفحة ، وقد طبعت فى لندن عامى ١٧٦٦ ، ١٨١٨ .



● ترجمات حسب توقيت النزول :

ومن هذه الترجمات ترجمة للسور حسب ما اشتهر عن تاريخ نزولها .
تبدأ مثلا بسورة العلق ، ثم القلم ثم المزمل ثم المدثر حتى تكون آخر السور نزولا وهى سورة التوبة - حسبما قال جمهور كتاب علوم القرآن .
وممن قاموا بالترجمة على ترتيب النزول - لا ترتيب المصحف - « ج . م . برودول » - وترجمته سماها « القرآن » . وكانت اول طبعة له فى لندن وادنبرة سنة ١٨٦١ ثم أعيد طبعه منقحا فى لندن عام ١٨٧٦ و ١٩٠٩ و ١٩١١ و ١٩١٣ و ١٩١٥ و ١٩١٨ و ١٩٢١ و ١٩٢٤ و ١٩٣٧ - كما طبع فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٩ ثم فى نيويورك عام ١٩١٨ ،

وكذلك سار فى هذا الاتجاه « ه . جريمه H. Grime » وبأدى بذلك المنهج « نولدكه » من قبل ، وتبعته محاولة « وليم موير W. Mur » فى كتابه « حياة محمد » ، حيث قسم المراحل القرآنية الى ست مراحل ، خمس منها فى مكة ، ثم محاولة « ويل Well » وقد قسم المراحل القرآنية الى أربع ، ثلاث منها فى مكة ، كما تأثر بهذه الطريقة كل من « رودول Rodwell » و « بلاشير » .

وقد تابعهم فى هذا المنهج ميرزا أبو الفصل فى ترجمته التى طبعت فى « الله آباد » بالهند سنة ١٩١١ و ١٩١٢ الخ ، ثم كانت الطبعة الرابعة فى بومباى بالهند عام ١٩٥٥ ، وكذلك المستشرق « ريتشارد بل » الذى طبعت ترجمته للقرآن حسب ترتيب النزول عام ١٩٣٧ و ١٩٣٩ فى أدنبرة .

وقد سلك « عزت دروزه » فى تفسيره للقرآن الكريم مسلك المستشرقين فى ترجمتهم معانى القرآن حسب ترتيب نزول السور ، وقابلنى فى مصر بعض المعاصرين كانوا يفكرون فى طبع القرآن بالعربية حسب ترتيب النزول - وهم فى برنامجهم الثقافى يحفظون أو يقرأون على هذا المنهج .

وهذا المنهج طريف غير انه يخالف القول الراجح الذى عليه جمهور علماء المسلمين من أن ترتيب السور حسب ما هى عليه فى المصحف انما هو امر توقيفى . أى أن الله هو الذى أوقف رسوله على الترتيب الذى يراعى فى كتابة المصحف ، ونزل بذلك جبريل الى النبى عليهما السلام - ثم ان عثمان بن عفان ترك لنا المصحف بترتيب السور المعروف الذى اجمع عليه الصحابة ، وارتضوا الأمر باحراق ما ليس عليه هذا الاجماع من الصحف التى عند الآخرين . . او ان تراجع على المصحف الامام ، أى الذى كان عليه الاجماع فى عهد سيدنا عثمان . وهو هو الذى كان عليه الاجماع فى عهدى أبو بكر وعمر ، وهو الذى كان محفوظا عند أم المؤمنين حفصة .

كما أن ترتيب سور المصحف المعروف الآن لا يختلف فيه اثنان ، انما يقع الاختلاف فى ترتيب النزول وأسباب النزول أحيانا ، ولو انها قليلة .

ثم اننى عندما اتخذت منهجى فى تفسير القرآن ، جعلت من قواعده تأمل وضع السورة بين السورة التى قبلها والتى بعدها حسب ترتيب النزول ، فان ذلك يساعدنى على معرفة الجو الطبيعى الذى نزلت فيه السورة ، وتلاحم المواقف المختلفة للحركة الاسلامية وتتابعها ، كما يلقى الاضواء على الآيات والأحكام والأخبار . . . وتعطينا الاتجاه الذى تسير فيه السورة . . . ولكن مع ذلك فانه يجب تأمل المناسبة التى تربط السورة بما قبلها وبما بعدها فى المصحف ، فان هذا ايضا يعطى المزيد من الاضواء الكاشفة . لما فى السورة من أحكام وأخبار وأهداف تربوية ، اذ انها أيضا فى ترتيب المصحف ذات علاقات وثيقة ، ويمهد ما قبل السورة للسورة ، وما بعدها مرتبط بها - فقد لوحظ تمام الارتباط واحكامه ، سواء اذا لاحظنا ترتيب المصحف أو ترتيب النزول كما لاحظت مع تمام الارتباط تمام التطابق بين الطريقتين : طريق دراسة التناسب طبقا للمصحف كما عليه الأقدمون ، وطريقة دراسة التناسب طبقا لترتيب زمن النزول كما عليه بعض المحدثين من المستشرقين والعرب المستغربين .

* * *

● دراسات حول القرآن :

قام المستشرق جوستاف فلوجل بدراسات من شأنها تيسير دراسة القرآن مثل : « تفصيل آيات الذكر الحكيم » وهو تبويب لموضوعات القرآن وآياته ، وقد ترجمه الى العربية الأخ الكريم «محمد فؤاد عبد الباقي» رحمه الله . ومثل فهرست كلمات القرآن وكلمات السنة ، وهناك دراسات عن التفسير وأصوله مثل « مقدمة القرآن » للمستشرق « ر . بل » وأبحاث عن القرآن مع مختارات منه مترجمة بالانجليزية لـ « هنرى بريزد فيل سميث » ومقتطفات فى كتاب « بحث فى التشريع الاسلامى » لمؤلفه « ش . جيللوت » .

* * *

● دراسة موسيقى القرآن واعتباره شعرا :

ان المستمع الى القرآن يتلى فى خشوع مع الالتزام بالأداء الشرعى للتلاوة الذى يسمى ترتيل القرآن كما كان يسمى قديما « تجويد القرآن »

بمعنى قراءة القرآن باخراج الحروف من مخارجها مع التزام قواعد المد والغن (بالغين) والاختفاء والادغام والاقلاب والظهار ، والقلقلة والهمس . وقواعد الوقف وأحكامه من وقف لازم أو ممتنع أو جائز .. أو جائز والأولى الوصل أم الأولى الوقف ، ان المستمع الى القرآن يتلى فى خشوع مع الالتزام بالأداء الشرعى الذى لخصنا معاملة .. يجد للقرآن ايقاعا ، أو يجد له وقعا فى نفسه حتى ولو لم يكن مسلما ، سمعه صناديد كفار قريش فقال أحدهم حين عوتب على تسله ليلا للاستماع الى القرآن يتلوه الرسول - وهو زعيم جبهة المعارضة للاسلام - قيل له كيف تفعل ذلك وأنت هو من أنت ؟ فقال يصف القرآن وتأثيره عليه : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما هو من قول البشر . قيل له : أصبأت ؟ قال : لا ، ولكنى اقول ما أجده فى نفس ..

وسمعه أحد الألمان من أخ مسلم - أو قل ان شئت - أخ مهاجر من طغيان رئيس مصر الأسبق جمال عبد الناصر ..

فأنصت حتى فرغ من صلاته .. ثم طلب منه ان يتلو ما كان قد سمعه فى صلاته بنفس الأداء فأعاد التلاوة ، ثم استعاده التلاوة للمرة الثالثة ، وكان المستمع « موسيقارا كبيرا » فقال : ما ينبغى لهذا الكتاب بكل الألحان التى جمعها فى نسق فريد الا ان يكون كتاب السماء المعجز .. وكان ذلك مدخلا الى اعتناقه الاسلام .. وهكذا حكى لى نفس هذه القصة عن رجل آخر بأمرىكا الشمالية ، ووجدت فى استطلاع عملته لغير الناطقين بالعربية من ترك ويوغوسلاف وباكستانيين وأفغان ، وجدت التأثير النفسى للتلاوة عليهم ، كما ان بعض « الاغريق واليونانيين » يجدون لتلاوة القرآن بل وللأذان بالعربية تأثيرا على مشاعرهم .

وقد اثبتت الأكاديمية الطبية الاسلامية التى انشأها الدكتور أحمد القاضى فى أمريكا علميا تأثير القرآن على كل من يسمعه ولو كافرا بنسبة ما ، تظهر فى ذبذبات تصدر عن جسد السامع للقرآن تسجلها مرصد علمية مخبرية ، وصدق الله العظيم « مثانى نقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم

تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله « (٢) ، « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٣) .

ومن ثم رأينا بعض المشركين ينسبون القرآن الى الشعر ويعدون الرسول شاعرا ، لقوله تأثير شعر الشعراء الحاد ، فانزل الله ما ينفى به هذه الدعوى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين » (٤) .

ورأينا من المستشرقين من يستشعرون هذا الشعور الجاهلى ، فترجموا بعض نصوصه شعرا ، ومن ذلك ما نشرته مجلة أدنبره فى عدد يوليو ١٨٦٦ بعنوان : مختارات بالشعر من القرآن لـ « ريتشارد بورتون » . وهذا الاتجاه اتجه مسموم كذلك ، لأنه يعنى أن القرآن لون من الأدب العاطفى المؤثر بخياله ، لا بما فيه من الحقائق ، وذلك يعنى تنحيته عن البحث العلمى الذى يعتمد على صدق الحقائق ، ويدعو الى الارتياح فى قصص القرآن وأخباره وفيما يطرحه على الناس من وعد أو وعيد ، ولا يجعله جديرا بأن يكون دستورا للبشرية ، يضع لها الأصول الثابتة .

وقد ذهب الى هذا بعض المستشرقين فعلا ، وتبعهم بعض الكتاب الشيوعيين المنتمين الى الاسلام .

وينفى هذه الآوهم عن القرآن أن المتخصصين – بل العرب أنفسهم – ينفون القول بأن القرآن شعر ، فعندما اجتمعوا بالوليد بن المغيرة للتآمر على الرسول وما يجب أن يذيعوه فى موسم الحج عن الاستماع اليه ، عرضت عدة أفكار للدراسة ، وكان مما اقترح أن يقال عن الرسول انه شاعر . فقال الوليد : والله ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر : هزجه ومديده وطويله ، وما هذا الذى سمعناه بشعر .

(٢) الزمر : ٢٣ . (٣) الحشر : ٢١ .
(٤) الطور : ٢٩ – ٣١ ، ونعمة ربك : يعنى القرآن – والمنون : يعنى الموت .

ثم ان كل ما جاء فى القرآن جاء خاليا من المبالغات التى هى طابع الشعر والنثر الخطابى ، وطابع كتب التاريخ . . بل ان كل ما فيه تقوم الدلائل على صحته حتى فيما كان غيبا مجهولا عند نزول القرآن ، فعندما نزل خبر عاد وثمود ، ولم يكن عند العرب علم بما روى عنهما ثم انكشف بعد ذلك ان خبرهما موجود فى كتب بطليموس ، فضلا عن ان كتب اليونان والرومان ذكرت أنبياءهما ، وذكرت اسم عاد مقرونا باسم « عاد ارم » وصدق الله اذ يقول : « والذى اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه » (٥) .

وقد ترجم « ويليام ف . دارين » الى الانجليزية سورة الفلق ، وترجم الى الألمانية « المعوذتين » ودرس ما فيهما من « القافية والوزن ، او السجع والنغم » ، كما ترجم « دانييل ج . رانكن » ترجمة شعرية لسور « الفاتحة والهب والناس » ، وذلك تحت عنوان : « القافية والوزن والسجع والنغم » .

والحق ان الأذن الموسيقية المرفهة تدرك من جمال نظم القرآن ما يجعله فوق كل نظم من القول ، حتى نشأ حول النظم فى القرآن وانسجامه دراسة مطولة فى بلاغة القرآن وأسرار الاعجاز ، وممن اشتهر بذلك « عبد القاهر الجرجانى » فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « اعجاز القرآن » .

* * *

● الترجمات المقارنة للقرآن بغيره :

والى جانب ما ذكرناه قام بعض المستشرقين بترجمة يقارن بها القرآن الكريم بغيره ، وذلك بجمع نصوص من القرآن وأخرى من غيره مما يطلق عليه الكتب المقدسة ومن ذلك :

– المختارات الأدبية المقدسة : وهو كتاب عن أخلاقيات الكتب المقدسة لـ « منكور دانييل كونواى » ظهر فى لندن سنة ١٨٧٤ ، (٨ اجزاء + ٤٨٠ صفحة) والطبعة الخامسة ظهرت سنة ١٨٧٦ .

- التوراة والقرآن : وضعه « جاك جوسيه » فى ١٤٨ صفحة .
- الكتب المقدسة والمصلحون الدينيون للانسانية: ألفه «لويس لوبلوا» .
- القرآن والتوراة والعبرية : قام بترجمة النصوص « لويس لوبلوا » ، وقد ذكر فيه ترجمة السور من ٥٧ الى ٦٥ فقط .
- القرآن والوحى اليهودى المسيحى : كتبه « دينيز ماسون » ، طبع فى مجلدين بباريس عام ١٩٥٨ .
- الكتب المقدسة للشعوب : او « كتب التوراة للأهم » : ألفه «ج.م. هود حسون » ، ويضم مختارات من الكتب المقدسة لدى الصينيين والهنود والفارسيين والبوذيين والقبط والمسلمين . وهو مقتطفات فقط فى ٢٥٢ صفحة ، وقد طبع فى مانشستر سنة ١٨٨٥ .
- الكتب المقدسة فى الشرق : تأليف : « ب . بوتيه » . طبع فى باريس سنة ١٨٤١ و ١٨٥٢ .
- دروس فى الأخلاقيات والفلسفة : ألفه « ا . رومان » - وهو مقتطفات من القرآن والعهد القديم ، ومن المسيح عيسى ابن مريم ، ومن كونفوشيوس ، ومن أشهر الفلاسفة والأدباء القدماء والمعاصرين ، طبع فى تورين سنة ١٨٧٩ .
- الأدب الدينى لـ « شارل لى دى » : ذكر فيه نصوصا مختارة من القرآن والتوراة وديانات الهند والصين ، وهو تاريخ ونصوص مختارة ، صدر فى باريس عام ١٩٤٩ . وما ترجم من القرآن فى الصفحات من ٤٥٩ الى ٦٠٠ .

* * *

● علوم القرآن :

ويعنى بها ما يتصل بتدوين القرآن واعجازه وأسباب نزوله ومحكمه ومتشابهه وقراءاته وأساليبه البلاغية وقصصه ، وما الى ذلك ، مما ألف فيه المسلمون الجيد الممتع ، كالانتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وقد نهض بدراسة لهذه العلوم من المستشرقين الألمان « تيودور نولدكه » سنة ١٨٦٠ ثم تلميذه « شواللى » سنة ١٩٠٩ ، ثم زاد عليهما « بركشتريسر » و « بريتل » ، الألمان سنة ١٩٣٨ .

ثم انشأت جامعة ميونخ معهدا خاصا بعلوم القرآن وبحوثه ضم كثيرا من المخطوطات والمؤلفات المتصلة بالقرآن ، ولكنها قد دمرت بقنابل الحرب العالمية الثانية .

الترجمة الكاملة لمعانى القرآن

● الترجمات الاسلامية :

نعنى بالترجمة الاسلامية تلك التى قام بها مسلمون ، وكان اول من ترجم معانى القرآن لغير العربية هو سلمان الفارسى ، فقد ترجم فى عهد الرسول ﷺ « فاتحة الكتاب » لمن أسلموا من الفرس القاطنين شرق وجنوب شبه جزيرة العرب ، وكانوا يقرأونها فى صلواتهم الى أن تعلموا العربية (٦) ٠٠ ومن هنا استنبط الحنفية جواز قراءة فاتحة الكتاب بغير العربية لمن لا يعرف العربية ، وترجمة الآيات فى الخطبة والمحاضرة ، واستحب أن يذكر بالعربية النص القرآنى مع الترجمة ، لأن الترجمة لا تكون الا للمعانى ، وقد يكون المعنى الذى يذكر عند الترجمة ليس دقيقا أو ليس كاملا ٠٠ فقراءة النص العربى جبر لما قد ينقص فى الترجمة .

وكانت أول ترجمة كاملة للقرآن فى عهد « هشام بن عبد الملك ابن مروان » الأموى الى اللغة السريانية ، وقد أهدى نسخة من الترجمة الى « أدور كاريورى » ويرجع تاريخ هذه الترجمة الى حوالى سنة (٦٩٠ م) ، ثم تلتها ترجمات كثيرة بكل اللغات قام بها المسلمون ، واصطبغت بثقافات المترجمين وعصورهم ، كما اصطبغت بمذاهبهم سنة أو شيعة ، بل ان للمنحرفين عن الاسلام ترجمات للقرآن تشرح وجهات نظرهم كالقاديانية . ونا لم يكن هذا حصرا للترجمات ولا المقصود ما ترجمه مسلمون فاننا نتركه لمن يريد التعرف عليها الى كتاب « القرآن فى جميع اللغات » .

● المترجم من غير المسلمين :

لقد تناول غير المسلمين من المستشرقين والمبشرين القرآن الى عدة لغات مختلفة تجاوزت المائة ، وكان لها أثرها فى شعر « جوته » شاعر

المانيا العظيم ، يظهر هذا فى ديوانه المسمى « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » وفيما يلى أشهر ما بلغنى من ترجمات :

● الترجمة باللاتينية :

ان أقدم ترجمة باللاتينية هى التى قام بها « روبرتوس كيتيترى » ، ويرجع تاريخها الى عام ١١٤٣ م ، واحسن ترجمة بها هى ترجمة المستشرق « ماراكس » المطبوعة سنة ١٦٩٨ لا بالنسبة للصواب ، ولكن باعتبارها لم تفحش فى تحريف المراد بالنص القرآنى ، وقد اعتمد عليها كثيرون من بعده ، ومن بين هؤلاء الذين اعتمدوا على ترجمته المسيو « سافارى » مؤلف كتاب « سياحة فى مصر » ، وقد كانت ترجمة « كيتيترى » للقرآن بناء على مشورة « بطرس فندابل » رئيس كنيسة « كلنيه » . ولكن ترجمته طبعت لأول مرة فى بازل عام ١٥٤٣ - ثم نقلت الى اللغة الايطالية والهولندية ، كما أعيد طبعها فى زيورخ سنة ١٥٥٠ وسنة ١٥٥٦ لدحض عقائد الاسلام .

وقد سادت فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى - فى أوروبا - ترجمة « بيلياندر » وهى ترجمة بعيدة كل البعد عن الأصل العربى . وقد نرجمه بحروف لاتينية الى الألبانية « ايلوميتكو كفريزى » عن ترجمة « سيل » الانجليزية . . ولا شك أن الترجمة لا تكون دقيقة عندما تنقل من لغة اخرى غير الأصلية .

وممن ترجموا القرآن الى اللاتينية « جوهن جوتنر ليكمانر » بعنوان « القرآن » وترجمه دومينيك جيرمانوس دى سيليزى تحت عنوان « تفسير القرآن » وطبع عام ١٦٥٠ و ١٦٦٥ . وترجمه أوجست بفيفر باسم « انتصار القرآن » ، وترجمه جان دى سيموفى - فى القرن الخامس عشر - الى اللاتينية والاسبانية مع طبع النص العربى ، كما ترجم مختارات منه باللاتينية أندريا أكلوتوس . وترجمه صموئيل جوتوالد ، وطبعه مع النص العربى .

ومن المخطوطات باللاتينية ترجمة مارك دى توليد - فى ميلانو ،

ترجم سنة ١٢١٠ م ، وترجمة بارو ، وهو مخطوط في مدينة اوترخت ، في
٣٣٩ صفحة ، ومخطوط في اوترخت للمستشرق « شرودر » .

● باللغة الايطالية - وقد ترجمه كثيرون أبرزهم :

« اليساندرو بوزاني » - له « القرآن » صدر في فلورنسا عام ١٩٥٥ .

« أكيلىو فراكاس » - صدر في ميلانو مع النص العربى سنة ١٩١٤ .

« لويجى بونيللى » - صدر في ميلانو مع النص العربى سنة ١٩٢٩

و ١٩٣٧ و ١٩٤٠ .

« فروجور » - صدر في بارى سنة ١٩٢٨ .

« اندريا أروىغابىنى » : وهو اسم تنكرى ، والاسم الحقيقى

« موسينيجو » ، واسم كتابه « قرآن محمد » صدر في بازل سنة ١٥٤٣ ،

ثم في فينيسيا سنة ١٥٤٧ .

« الفارس فينستري كالزا » : له « القرآن » مع تفسير ومذكرة عن

السيرة النبوية ، صدر في باستيا عام ١٨٤٧ .

« جيوفانى بانزيرى » : له « القرآن » صدر في عام ١٨٨٢ ثم ١٩١٢

و ١٩١٣ .

« فيولانتى » : صدرت ترجمته في روما عام ١٩١٢ .

« ا . برانكى » : له « القرآن » صدر في روما عام ١٩١٣ .

● باللغة الفرنسية :

يوجد الآن نحو أربعين ترجمه للقرآن باللغة الفرنسية ، ومن بينها

ترجمة مزورة تشوه القرآن باسم « فاطمة زائدة » ، نشرت في لشبونة

عام ١٨٦١ ، وأول ترجمة للقرآن الى الفرنسية كانت للدكتور « دى بير »

سنة ١٦٤٧ . وقد طبعت في أمستردام سنة ١٧٧٠ في مجلدين ، ثم أعقبه

« كزيميرسكى » (١٧٨٠ - ١٨٦٥) وهو بولندى الأصل وقد تعلم بفرنسا ،

وأول طبعات « كزيميرسكى » سنة ١٨٤٠ وآخرها سنة ١٩٧٠ ، وقد وضع

« بوسكيه » مقدمة للترجمة طبعة ١٩٤٩ .

كما ترجمه « مكسيم سافارى » وجعل لتفسيره مقدمة طويلة أسماها « مختصر حياة محمد » افردناها بالرد على ما فيها من أخطاء ، وقد طبعت اثنتى عشرة مرة أخرى سنة ١٩٧٠ وأولها سنة ١٧٨٣ - وهنالك ترجمة أخرى باسم «كلود سفارى» ، وأخرى للمسيو «موتون» ، وترجم «هودا» الست والأربعين سورة الأخيرة من القرآن سنة ١٨٦٤ ، كما ترجمه « لويس بلاشير » عام ١٩٠٠ .

● باللغة الألمانية :

وأشهر من ترجمه الى الألمانية « جانتار واهل » ، ونشرت ترجمته سنة ١٨٢٠ ، كما ترجمه « مرجولين » وترجمه « أهلمان » معلقا على ترجمته ببعض الحواشى - وظهرت أول ترجمة ألمانية عام ١٦١٦ (٧) ويوجد الآن ٤٦ كتابا بالألمانية تناولت ترجمة لنص القرآن أو لحياة محمد صلى الله عليه وسلم .

● باللغة الروسية :

إذا ادرکنا ان للإسلام والمسلمين قبل الثورة الشيوعية وزنا كبيرا ، وأنهم كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من حيث العدد ، وينتجون من القمح والحبوب والمحصولات الغذائية ما يغطى حاجة روسيا ونصف القارة الأوروبية تقريبا ، بالرغم من وضع السلطة السياسية فى ولاية موسكو لأسباب دولية تنبع من التعصب الذى يطيح بالخلق الديمقراطى - فاننا حين ندرك ذلك - لا نجد غرابة فى أن ترجمة القرآن الى اللغة الروسية وجدت طريقها المبكر أيضا ، فظهرت ترجمة للقرآن بالروسية عام ١٧٧٦ فى بطرسبرج ، وهى ترجمة لفتت الأنظار الى الاستشراق ، بل ان القيصر نفسه أمر « ديمتريوس كانتيمير » بترجمة القرآن الى الروسية ، فقام بترجمته عن الفرنسية - ترجمة « دورير » - وقد طبعت هذه الترجمة فى سان بطرسبرج عام ١٧١٦ ، كما أمر القيصر بطرس الأكبر « بيوتر فاسيليفيتش بوستنكسيوف » بترجمة القرآن (٨) عام ١٧٩٠ - ثم ترجمه عن

(٧) المستشرقون لنجيب العقيقى ص ٨٧ .

(٨) كان « بوستنكسيوف » من جامعة بادوا - وقد سمي ترجمته

« قرآن محمد » .

الانجليزية للمستتر « سيل » المستشرق الروسى « الكسندر كولماكوف » ، وطبع ما ترجمه سنة ١٧٩٢ وهناك مخطوط لترجمة القرآن لـ « يوجوسلافسكى » اتمه عام ١٨٧١ ثم ترجمه « جوردى سابلوكوف » فى مجلدين بعنوان « القرآن » وطبع فى كازان عام ١٨٧٧ و ١٨٧٩ و ١٨٩٨ وفى عام ١٩٠٧ طبع مرتين ، ثم مع النص العربى عام ١٩٠٨ .

« نيقولايف » : وكتابه « قرآن محمد » ترجمه من الفرنسية عن « ببيرسناين كازيميرسكى » وقد طبع خمس مرات اولها فى موسكو سنة ١٨٦٤ .

« اجا فنجل ييفيموفيتش كريمسكى » : ترجم السور المكية ، وصدرت له ثلاث طبعات .

« اينياس كراتشكوفسكى » : وقد حرر ترجمته فى عام ١٩٢١ ، وطبع حينئذ ثم اعيد الطبع فى ١٩٢٨ - ثم صدر فى موسكو عام ١٩٦٣ ، وهناك عديد من الترجمات الروسية لأجزاء او سور من القرآن ، ونحو احدى عشر ترجمة كاملة بالروسية .

● اللغة السويدية :

من هذه الترجمات ترجمة الآتى أسماؤهم :

« فريدريك كرونستوليه » : وعنون لترجمته « القرآن » وطبع فى استكهولم سنة ١٨٤٣ .

« س . ج . تورنبرج » : له « القرآن العربى » ، وطبع فى لوند عام ١٨٧٢ ثم عام ١٨٧٤ .

« ك . ت . زيترسنين » : وعنوان ترجمته « القرآن » طبع فى استكهولم عام ١٩١٧ .

● اللغة الانجليزية :

يوجد الآن نحو ٥٧ ترجمة للقرآن بالانجليزية .

لقد ترجم القرآن الى الانجليزية « جورج سيل » (١٦٩٧ - ١٧٣٧)

- وكانت نشرت ترجمته هذه عام ١٧٣٤ ، ثم أعيد طبع هذه الترجمة فى مجلدين ، مع بيان ارقام الآيات ، ونشرت فى لندن عام ١٨٣٥ - وتعد من أفضل التراجم بفضل ما علق عليها من مذكرات مقتبسة من كتب التفسير العربية والصوفية ، ولهذه الترجمة مقدمة مسهبة عن الدين الاسلامى ، ويصفه الأوروبيون بأنه نصف مسلم ، وقد أعانه على ذلك ما لديه من مخطوطات اسلامية كثيرة ونادرة ، واعتمد فى ترجمته على نسخة لاتينية اصدها « ماراتشى » سنة ١٦٩٨ .

كما ترجم القرآن آخرون مثل : « ج . ج . مارسيل » ١٨٥٦ ، ومثل « الكسندر روس » ، و « رولاند تايلور » ، و « تيودور أرنولد » ، و « ر . كارليل » و « ج . م . رودول » سنة ١٨٦١ و « ستانلى لين » و « بول » و « ا . ه . بالمر » سنة ١٨٨٠ ، و « مدام مارجليوث » ، فقد ترجمت نصف القرآن من أول سورة البقرة ، و « ريتشارد بيل » وقد ترجم القرآن ورتبه حسب ترتيب زمن النزول فى مجلدين ، و « دنكان جريتليز » وسمى ترجمته « كتاب الاسلام المقدس » كما ترجمه « ريتشارد بل ماين » سنة ١٩٣٧ .

هذا عدا كثير من الترجمات لمختارات من القرآن . والترجمة الوحيدة التى قام بها مسلم انجليزى اصدها « مارمادوك بكتول » سنة ١٩٣٠ (٩) .

● اللغة البلغارية :

وعن ترجمة « سال » الانجليزية نقلت ترجمة للقرآن باللغة البلغارية .

● فى البرتغال :

اول ترجمة مطبوعة باللغة البرتغالية هى ترجمة « بوكارا فييجو » عام ١٨٨٢ . ثم مخطوط سنة ١٩٤٦ قام بها « جوزيه بدرو ماشادو » ، ثم ترجمة « بنتو دى كاسترو » : « القرآن » نقله عن ترجمة « بكتال » الانجليزية وطبع سنة ١٩٦٤ فى « لورنزو ماركيز » « موزمبيق » .

(٩) تاريخ العرب « مطول » لـ « فيليب حتى » ص ١٧٤ - ط الثالثة .

● القشتالية :

ترجم « أ . هرناند يزكتا » القرآن الى اللهجة القشتالية ، لغة قشتالة الأسبانية ، وذلك نقلا عن الترجمة الفرنسية لـ « كلود سافارى » كما توجد ترجمة أخرى للقشتالية عن ترجمة « كزيميرسكى » .

● اللغة الرومانية :

قام « سيلفسترو أوكتافيان ايزوبسكول » بترجمة القرآن عن العربية الى الرومانية وطبع سنة ١٩٥٤ فى بوكافيا .

● يوغوسلافيا :

وللقرآن ترجمة بلغة « البوسنة » أحد أقاليم يوغوسلافيا ، وهو بالعربية ، فقد كانت إحدى الولايات الاسلامية التى تتحدث العربية وتكتبها قبل انحسار الاسلام عن أوروبا ، شأنها فى ذلك شأن تركيا وماليزيا التى ظلت لغتها تكتب بالحروف العربية . الى أن أريد قطع صلات هذه البلاد بكل ما يمت الى الاسلام بصلة ، وبخاصة الحروف العربية التى ان بقيت ، فإن القرآن سيظل يقرأ فى هذه البلاد - ولو بدون فهم - حتى تتاح فرصة تعلم معانى مفردات ما يقرأون فيزداد الفهم للاسلام من مصدره الأول ، وتتوثق الصلات بين هذه البلاد والبلاد الناطقة بالعربية .

● اللغة الفنلندية :

وقد ترجم القرآن إليها « ز . ا . أ . أمسن بوير » . وطبع كتابه فى « تمبيرى » سنة ١٩٤٢ .

● اللغة الهندية واللغات الأخرى :

جاء فى كتاب عجائب الهند والصين لـ « يازجرين شهياري » أنه رأى ترجمة كاملة لمعانى القرآن باللغة الهندية حوالى سنة ٢٧٠ هـ ، ثم تتابعت الترجمات حتى أصبح هنالك أكثر من مائة ترجمة بالأوردية .

كما ترجم القرآن الى الجاوية سنة ١٩١٣ والى السنغالية سنة ١٩٠٨ والعبرانية والآرامية سنة ١٧٩٠ ، والفارسية سنة ١٩٢١ - والى التركية سنة ١٩١٣ وفيما بعد ذلك - وفى عهد « كمال أتاتورك » وخلفائه كانت الترجمة للآيات والسور اللازمة للصلاة بالحروف اللاتينية اذ كانت قد صدرت أوامر «أتاتورك» بتحريم الكتابة بالحروف العربية ، ومهما يكن فقد بلغت اللغات التى ترجم اليها القرآن نحو أربعين لغة سنة ١٣٦٦هـ ثم بلغت ٦٧ لغة عام ١٩٦٧ .

● لماذا أطنبت فى ذكر ترجمات القرآن ؟

ورب سائل يسأل : وما علاقة هذا بالسيرة حتى نفرد لترجمة المستشرقين وغير المسلمين بابا فيه هذه التفصيلات ؟
ويدون اسهاب فانى اردت أن اعطى صورة الاهتمام العالمى بالقرآن .
بما قصرت عنه همم كثير من الأمم الاسلامية .

ثم لأبين كيف ان هؤلاء الغربيين استطاعوا أن يدركوا أن من صميم التعرف على محمد ﷺ أن يتعرفوا على كتابه الذى يرسم منهجه ومنهج أمته فى الحياة ، فهو عليه الصلاة والسلام كما قالت ام المؤمنين عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » ثم لأعلم ابنائنا والمعاصرين ومن بعدهم ان دراسة السيرة لا يجوز علميا أن تنفصل عن القرآن الكريم ، ولا عن السنة المطهرة ، وذلك لأن الرسول « رجل » و « رسالة » ، وتطابق بين حركة الرجل ومسيرته وبين منهج الرسالة وأصلها الكتاب الكريم .

ثم لأن هذه الترجمات كانت مصبوعة بطبائع المترجمين وطبيعة الحياة الاجتماعية التى تربوا فيها .. فهى ترجمات ينبغى التنبيه اليها لنقرأ بحذر ، وهى حين يترجمها هؤلاء لا يترجمونها فى الغالب على أنها كتاب الله الرب الذى لا ينحاز الى مذهب أو طائفة أو جنس ، فهو أعلى وأجل من أن يكون ما يقوله نضح بيئية ، ولا تعبيرا عن مذهب ، وانما يترجمونها على أنها أفكار وأدب وفلسفة وثقافة عبقرية محمد ﷺ ، الا النادر منهم ، والنادر لا حكم له .. أى لا يعول عليه فى الحكم العام .

أشهر كتاب السيرة

لم تحظ سيرة عظيم بما حظيت به سيرة النبي محمد ﷺ ، فقد كتب فيها كل الأجناس والطوائف بشتى اللغات . حتى ان اللغة الأوردية التى لم تصبح لغة كتابة أدبية الا منذ قرنين بلغ عدد المؤلفات بها عن النبي أكثر من ألف مؤلف . ومن الكتاب فيها : هنادك ، وسيخ ، وبرهموسحاج . ومنذ نحو قرن (١٣٠٤ هـ) نشرت مجلة المقتبس الدمشقية احصاء لما صنف فى السيرة النبوية بمختلف اللغات الأوروبية فبلغ نحو (١٣٠٠) كتاب ، اما مادحا ، واما قادحا . . وحسب بعضهم ان يكتب فى سيرة محمد ﷺ لينال شرف الكتابة فيها (١٠) .

ومن أشهر المستشرقين الفرنسيين :

- ١ - « م . وات Wate » : انجليزى له كتاب « محمد فى مكة » صدر عام ١٩٥٣ - كما له كتاب « الجبر والاختيار فى الاسلام » .
- ٢ - « ويل Well » (١٨٠٨ - ١٨٨٩) : وهو يهودى ، وكتابه « النبي محمد فى حياته ودينه » يقع فى ٤٥٠ صفحة ، وقد استعان فى كتابته بـ « سيرة ابن هشام على الحلبى » ، وبـ « السيرة الحلبية » ، وقد نشر سنة ١٨٤١ . وفى « السيرة الحلبية » كثير من الروايات الواهية يعتمد عليها المستشرقون بغية التضليل .
- ٣ - « وليم بدويل » (١٥٦١ - ١٦٣٢) : انجليزى . له كتاب « محمد » أو « مصاحبة روحانية بين الشيخ سنان والعالم أحمد » ، وهو مشحون بمفتريات سخيفة على النبي الكريم (١١) .

- ٤ - « أوريان ريلان » : هولاندى . ويعد أول من أمسك القلم من

(١٠) الرسالة المحمدية للسيد « سليمان الندوى » ص : ٦٥ - ٦٦
ترجمة « محمد ناظم الندوى » - ط . المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ .

(١١) المستشرقون ط ٣ ، ص ٤٦٤ .

العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار للإسلام وصاحب الرسالة فى كتابه
عن الديانة المحمدية .

٥ - « سيرنفر » : له « حياة محمد وعمله » وهو مثل « نولدكه »
يزعم أن الوحي نوبات هستيرية ويسمىها « شوتلاين » ، وقد رد عليه
« دوغويه » قائلا : ان الحافظة فى المصروعين تكون معطلة على حين
ان حافظة « محمد » كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحي .

٦ - « نيسوفانيز كونتينيوأتوتس » (١٨١٧) : ويقال انه أول من
الف فى السيرة كتابا سماه « حياة محمد » . وفى الحق أن « يوحنا
الدمشقى » سبقه بالترهات الكثيرة عن رسول الله . وفى كتاب « المستشرقون
والاسلام » لـ « زكريا هاشم » عرض لمفترياته ورد عليها (١٢) .

٧ - « د . س . مرجوليوث » : انجليزى متعصب ضد الاسلام
وكان عضو المجمع المصرى والمجمع العلمى العربى بدمشق له فى السيرة
« محمد ومطلع الاسلام » صدر سنة ١٩٠٥ وله « الجامعة الاسلامية »
صدر عام ١٩١٢ و « التطورات المبكرة فى الاسلام » صدر عام ١٩٢٣ .

٨ - « توماس كارليل » (١٧٦٢ - ١٨٠٥) : انجليزى ولد بكارليل
وبها سمى ، وله كتاب : « الأبطال وعبادة البطولة » .

وقد عقد فيه فصلا عن النبى ﷺ ، فصوره تصويرا عظيما ، ولكنّه
عندما تحدث عن شكسبير الشاعر الانجليزى وضعه فى منزلة أعلى من منزلة
محمد ﷺ وهو غير « كارليل ماكرتناس » المستشرق الذى توفى
بالقرن العشرين . وقد ترجم على أدهم الجزء الخاص بالنبى ﷺ (١٣) .

٩ - « ج . بارتيلمى سانت هيلبر » : له « محمد والقرآن » وبه
الآيات مجموعة طبقا للموضوعات فهو مقتطفات - طبع سنة ١٨٦٥ .

(١٢) المستشرقون ط . ثلاثة ، ص ٤٨١ . وفيها أن « كارليل » ولد

(١٣) المستشرقون ط : ثلثه ، ص ٤٨١ . وفيها أن « كارليل » ولد

سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٨١ .

- ١٠ - « بودى » : ألف « حياة محمد » عام ١٦٧١ ، ونقحها سنة ١٧٣٠ ، ويعد كتابه أول كتاب وقف به الفرنسيون على الاسلام .
- ١١ - « هنرى كونت دى بولنفلويه » طبع فى سنة ١٧٣٠ كتابه « تاريخ العرب وحياة محمد » فأظهر الرسول فى صورة نابغة ، وزعم أن رسالته محدودة باطار المجتمع العربى .
- ١٢ - « ر . دوزى » : له بحث فى التاريخ الاسلامى - طبع : ليدن سنة ١٨٧٩ فى ١٣٢ صفحة .
- ١٣ - « دى باستوريت » : كتب فى سنة ١٧٨٨ كتابا للتوفيق بين ديانات الشرق الثلاث : زرادشت ، وكونفوشيوس ، ومحمد ، فأصاب الاسلام حظ موفور .
- ١٤ - « ديفرجه » (١٨٠٥ - ١٨٦٧) : أخذ العربية عن برسفال واستخلص سيرة النبى ﷺ من تاريخ « أبى الفداء » كما فعل « سفارى » من قبله بنحو قرن . مع انحراف فى تفسير وقائع السيرة او تحريفها .
- ١٥ - « دى برسفال » (١٧٩٥ - ١٨٧١) : ألف كتاب « باكورة تاريخ العرب » فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٤٧ . جعل الجزء الثانى لعصر النبى ﷺ . وطبع فى باريس سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٠ .
- ١٦ - « هنرى لامانس اليسوعى » (١٨٦٢ - ١٩٣٧) : مدير ادارة المبشرين ببيروت . له كتاب « اخلاص محمد فى اعلان دعوته » ، و « الحكام الثلاثة أبو بكر وعمر أبو عبيدة » . و « عمر محمد وفاطمة بنت محمد » نشر سنة ١٩١٢ و « مهد الاسلام » سنة ١٩١٤ ، و « السيرة » سنة ١٩١١ ، وهو بلجيكى المولد فرنسى الجنسية .
- ١٧ - « هيلار » (١٨٠٥ - ١٨٩٥) : كاتب سياسى مولع بالبحث فى اديان الشرق ، وكتب فيها عدة كتب منها كتاب « محمد والقرآن » .
- ١٨ - « البارون دى فو » : له كتاب « صاحب القرآن » سنة ١٨٩٨ .
- ١٩ - « م . سفارى » : مؤلف كتاب « مختصر حياة محمد » وهو الكتاب الذى تولينا نقده . وكل هؤلاء فرنسيون عدا « كارليل » .

وأما الانجليز فممنهم :

٢٠ - « وليم موير » (١٨١٩ - ١٩٠٥) : ألف « حياة النبی » و « التاريخ الاسلامی » و « تاريخ الخلافة » .

٢١ - « بريدو Prideaux » (١٦٤٨ - ١٧٢٤) : مؤلف « تاريخ حياة النبی » .

٢٢ - « أرنست جانييه Gagnier » : من أساتذة أكسفورد له كتاب « تاريخ محمد » وقد جمعه من كتب المؤرخين المسلمين وعنى فيه بالحياة الخاصة للنبي ﷺ وطبعه في مجلدين بامستردام عام ١٧٢٢ ، وله أيضا « حياة محمد » مقتبس من أبو الفدا ، ترجمه الى اللاتينية عام ١٧٢٣ ونقد حياة محمد لـ « بولينفيلز » .

ومن الهولنديين :

٢٣ - « وت P. J. Ueth » (١٨١٤ - ١٨٩٩) : له كتاب « محمد والقرآن » ، وهو خمس مقالات نشرت في مجلة الدليل الهولندية ، و « الفتح الاسلامی والخلافة الاسلامية » ، و « مدارس العرب » و « تاريخ اللغات السامية » رد فيه على « رينان » والأب « لاجاست » كما علق على « تاريخ العرب » في اسبانيا لـ « دوزي » و « نقل القرآن الى الهندية مع نبذة في دخول الاسلام الهند والدعوة المحمدية » .

٢٤ - « كريستيان سنوك هربرونجه الهولندی » (١٨٥٧ - ١٩٣٦) : له رسالة عن الحج الى مكة خرج بها الى الآثار الوثنية في مراسيم الحج - فيما يزعمه .

٢٥ - « ج . ونسك » (١٨٨١ - ١٩٣٩) : له « محمد واليهود في المدينة » طبع في سنة ١٩٠٦ .

ومن الدانمارك :

٢٦ - « يوهل فرنفر » (١٨٥٠ - ١٩٣٢) : أصدر « حياة محمد » سنة ١٩٠٣ . و « تعاليم محمد طبقا للقرآن » سنة ١٩٢٤ ، وله « نهضة الشيعيين في الدولة الأموية » وكتاب « على مدعيا وخليفة » سنة ١٣٢١ هـ .

٢٧ - « أويسترب » (١٨٦٧ - ١٩٣٨) : أصدر « موجز تاريخ دين الاسلام » سنة ١٩١٤ .

٢٨ - « جودى بيترهمر » (١٨٩٧ - ١٩٤٥) : ألف مجموعة من الكتب فى تاريخ الاسلام وكانت درجته العلمية فى اللاهوت سنة ١٩٢٢ .

٢٩ - « بدرسن » : ولد سنة ١٨٦٦ ، والتحق بالجامعة لدراسة اللاهوت سنة ١٩٠٢ وله « الاسلام منشؤه ونهضته » سنة ١٩٢١ .

ومن المانيا :

٣٠ - « فلولزن » (١٨٢٤ - ١٩١٨) : له « محمد فى المدينة » وهو مختصر اعتمد فيه على النصف الأول من المغازى للواقدى .

ومن النمسا :

٣١ - « سبرنجر » (١٨١٣ - ١٨٩٣) : له « سيرة محمد » فى ثلاثة أجزاء أعانه فيها « نولدكه » وله « تعليم محمد » .

ومن السويد :

٣٢ - « سترستن » : المولود سنة ١٨٦٦ . له « تاريخ حياة محمد ونسائه ورجال الاسلام بعده حتى سنة ٣٣٠ هـ » - وله : « القرآن والانجيل المحمدى » (١٩٠٦ - ١٩٠٨) و « معارج الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية » نشر فى ليزج سنة ١٨٩٦ .

ومن البرتغال :

٣٣ - « بروفيجانيه » له « سيرة الرسول » .

ومن امريكا :

٣٤ - « ايرفنج » : له « سيرة النبى » وقد ختمها بفصل عن قواعد الاسلام ومصادره .

٣٥ - « فيليب حتى » : وأصله لبنانى . له « تاريخ العرب » ترجمة الأستاذ « مبروك نافع » وفيه فصول عن السيرة . وله « تاريخ العرب »

- مطول - الفه بالاشتراك مع « ادوارد جورجى » و « جبرائيل جبور »
وقد جعل القسم الثانى من الجزء الاول عن ظهور الاسلام ودولة الخلافة .

ومن ايطاليا :

٣٦ - « الأمير ليون كايتانى » (١٨٧٩ - ١٩٢٦) : من روما . له
« تاريخ الاسلام » فى تسع مجلدات من النبوة الى سنة ٤٠ هـ .

● منصفون :

ومن المستشرقين كتاب انصفوا الاسلام وان لم يسلموا ، وقد ذكرنا
رأينا فى كتاباتهم ، ومن هؤلاء :

- « اتين دينيه » الفرنسى : ألف « محمد رسول الله » ودافع فيه
عن تعدد الزوجات . وذكر انه أمر ذائع فى سائر أرجاء العالم . وأنه
النظام الأمثل . كما دافع عن الاسلام فى رسالة أخرى سماها « أشعة
خاصة بنور الاسلام » وانتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام .

- « شتمز دومولان » : صاحب كتاب « الاسلام » ، أنصف الاسلام
عامه وقانون تعدد الزوجات خاصة .

- « مونجمرى وات » : عميد الدراسات العربية بجامعة أدنبره
ومؤلف « الاسلام والجماعة المتحدة » .

وقد أصدره عام ١٩٦٤ (١٣٨٤ هـ) ، وبين فيه أن الصراع بين
حركة تجديد جاهلية تنحدر الى الشهوات وجمع المال ، وبين حركة
التجديد الاسلامى هو القائم الآن . وذكر أن الاسلام يدعو الى وحدة البشر
على أساس العقيدة لا العنصرية ، والى وحدة الوجهة والمثل الأعلى
او باللغة الانجليزية (Ibed) ولم يعرف العالم قبل الاسلام هذا
النوع من وحدة الأمة (١٤) .

- « رينولد نيكولسون » : رهو يمجّد الرسول ولكنه يفسر علاقة

(١٤) المستشرقون والاسلام لـ « زكريا هاشم » ص ٥٣٤ .

الناس برهبهم تفسير منحرفى الصوفية فيقول : « الحقيقة المحمدية »
لا « الصورة المحمدية الجسدية » هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى
الواسطة بين الله وعباده والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم
بالله على نحو ما يعرف الله نفسه ، وتصل اليهم منه العطايا والمنح
الالهية (١٥) .

وهذه فكرة وثنية فى حقيقتها كاللاغوس ، أو المخلص يسوع ، فقد
رفع الله عن عباده الحجب والوسائط .
* * *

● مستشرقون أسلموا :

وغير هؤلاء كثيرون كتبوا عن الاسلام فاستهواهم ، وكانت لديهم
الجرأة على التخلص من عقدة الجمود ، فأعلنوا اعتناقهم الاسلام ، ومن
هؤلاء ناصر الدين « اتين دينيه » الفرنسى ، و « بوزورث سميث »
و « ج . ويلينز » و « انسويروكس » ، و « أرنست بارنت » الألمانى ،
و « أرثر كين » الأمريكى (على عمر كريم) و « هوجين لويى بوركهابرث »
(١٧٨٤ - ١٨١٧) وهو سويسرى تجنس بالجنسية الانجليزية وتوفى ودفن
فى القاهرة . و « اللورد ستانلى أوف الدرلى » - اللورد هدلى - الشيخ
عبد الواحد يحيى ، وهو فرنسى كاثولىكى أسلم على المذهب الاسماعيلى ،
وتصوف وعاش بالقاهرة حتى توفى بها ، و « جون سنت » الانجليزى
(محمد جون) رئيس جمعية المسلمين الانجليز ، والمهندس المعمارى
الاسترالى « نورمان » واشتهر باسم « أحمد عبد الله نورمان » .
و « علاء الدين شلبى » الألمانى ، والمرحوم الأستاذ « كرستيان شرفيس » أحد
تلامذة « أوجست كومت » وأحد الأدباء الفرنسيين المعدودين وفلاسفتها
المشهورين . و « هاورث دن » : من أصل ألمانى يعيش فى أمريكا وتسمى
باسم « جمال الدين » ومن مؤلفاته « مقدمة لدراسة التربية فى مصر »
بالانجليزية .

وقد كتبت احدى المجلات الانجليزية عن سبب ميل الانجليز والأوروبيين

بعمامة الى الاسلام فقالت : « ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها ، لأننا معاشر الانجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبهاً بالعمل عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم . . عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط (شلدراك) ، عقيدة لا تقف فى سبيل التفكير » (١٦) . وبالبحث وجدوا فى الاسلام كل ذلك الذى ينشدونه .

* * *

● طبيعة كتابة المسيحي :

يقول الأستاذ زكريا هاشم : « جدير بنا ألا نتوقع من المستشرقين - وهم على غير ديننا - أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الاسلامية - مهما كانوا منصفين - كما نتحدث نحن المسلمين . بل حسبهم - وهذا قصارى جهدهم - هذه الخلافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، واظهارهم محمداً للعالم المسيحى مؤمناً صالحاً يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهداً أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين » .

وتقول الأستاذة « زاهية مصطفى قدور » فى رسالتها لجائزة الماجستير : « وإخالفنا نفرط فى حق أنفسنا وتاريخنا أشد نفرط اذا لم نأخذ من المستشرقين زمام البحث فى تاريخنا . اذ أنهم - رغم الجهود التى بذلوها فى القرن العشرين لكشف نواحي التاريخ الاسلامى - ما زالوا بعيدين عن كثير من الحقائق ، وسيبقون كذلك ما داموا يعيشون فى غير محيطنا ، ويتأدبون بغير آدابنا ، وينظرون بمنظار قد لا يظهر لهم حقائق هذا التاريخ بحكم نشأتهم وبيئتهم وثقافتهم الأولى ومجتمعهم . ثم انهم وهم يعيشون فى محيط مآدى يصعب عليهم فهم الروح التى جاء بها الاسلام ، فتلك لا تأتى بالقراءة والتتبع ، ولكنها تأتى مع ذلك من التقاليد الموروثة والبيئة والشعور بالصلة بيننا وبين بناء هذا التاريخ » (١٧) .

(١٦) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
 (١٧) عائشة أم المؤمنين ص ٤ . نشر لجنة البيان العربى سنة ١٩٤٧ م (١٣٦٦ هـ) .

وانك لتلمس مافى صدورهم على صفحات كتبهم فى التاريخ حين يعرضون للرسول محمد ﷺ بالذات ، مثل ما نجده فى كتاب « مجد الاسلام » لـ « جاستون فييت » يقدم فيه « بانوراما » لتاريخ الاسلام ، وقد تجاوز فيه الحقيقة عندما تناول سيرة الرسول والخلافة الاسلامية ، وقريبا منه « ادوارد فرمان » فى كتابه « تاريخ المسلمين وفتوحاتهم » ، وكذلك « ارنولد توينبى » فيما اتصل بالتاريخ الاسلامى ، وكذلك دوائر المعارف الاسلامية الانجليزية او الفرنسية او الروسية ، وما أشبهها كدائرة معارف الدين والأخلاق . ولا عجب : فكل اناء بما فيه ينضح .

ومع أن المستشرقين قد تطورت أفكارهم وأحكامهم – عن كتابات ما قبل القرن العشرين – التى كانت مليئة بالتحيز والتهجم ، بحكم اختلاف الدين ، أو اختلاف المصلحة أو اختلاف الجنس ، أو بسبب قلة ما لديهم من المصادر وجهلهم باللغة العربية ، وسوء الترجمة القديمة . فقد تطورت فى القرن العشرين الى كتابة فيها كثير من الحقائق ، وكثير من التحليل الدقيق ، ومع هذا فانه لا يزال بعضها لا يخلو من الدس والتشويه حيناً عن سوء نية ، وحيناً عن سوء فهم للحقائق التاريخية .

وقد ذكرنا عوامل وأسباب انحراف المستشرقين فى غير هذا الكتاب . وسنفرد كتابات المعتدلين منهم بالبحث لنرى كيف أن المسيحى مهما لبس مسوح العدالة والانصاف فانه لا ينسى حقيقة من فى داخل هذه المسوح ، وليعرف أبناء ملتنا الحكمة السامية فى اشتراط ائمتنا لقبول الرواية التاريخية صحة الاسناد وعدالة الراوى فضلا عن اسلامه وبلوغه .

ان صورة النبى محمد ﷺ لتتغير فى كتابات المستشرقين بتغير جنسية الكاتب ولا تجد للصورة الصحيحة الكاملة مكانا عندهم . وكما قال الأستاذ زكريا هاشم :

« ان المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية ، هى أبعد ما تكون عن الحقيقة . انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها امثال « ولتر سكوت » و « اسكندر ديماس » . وذلك لأن هؤلاء

يصورون أشخاصا من أبناء قومهم ، فليس عليهم الا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة . أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية للأشخاص السيرة ، فصورهم حسب منطقهم الغربى وخيالهم العصرى . وان الدكتور « منوك هيرفينجه » ليقول فى نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » : « اننا نرى الأستاذ « جريم » لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها فى عمل لكان أفضل . وان الثمار التى كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها . ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنبا جديد ففشل فى وضع السيرة النبوية التى حاول فيها أن يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكى ، وفى جعل محمد اشتراكيا ، وفى أن تقود الاشتراكية نفسها محمدا الى وضع الدين الذى أتى به . ان الاشتراكية الاسلامية لا الاشتراكية الحديثة كما يتصورها « جريم » ثمرة من ثمار الرسالة الاسلامية ، وليست الرسالة الاسلامية ثمرة الاشتراكية .

* * *

● المهتمون بالطبقات الكبرى :

وقد اهتم بنشر كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد عدد من المستشرقين كما اهتموا بتحقيقها . ومن هؤلاء :

« شبرنجر Sprenger » : وهو نمساوى المولد كان فى سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفا فى ديوان من دواوين المعارف فى مقاطعة « البنغال » وأمين السر للجمعية الآسيوية فيها ، وقد عنى بكتاب المغازى للواقدى ، وطبع كتاب « الاصابة فى أحوال الصحابة » للحافظ ابن حجر العسقلانى . وقد ادعى أنه أول أوروبى كتب فى سيرة محمد ﷺ معتمدا على المصادر العربية الأولى ، ولم يعتمد فى تأليفه الا عليها ، ومع أنه - فى الحقيقة - لم يكتب كتابه دفاعا عن صاحب الرسالة ﷺ - بل كان متحاملا عليه ومخالفا له - الا أنه قال فى مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع فى كلكتا سنة ١٨٥٣ - ١٨٦٤ : « لم نكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة - كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمة المعاصرة - أتت

فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هذا العلم العظيم
الخطر ، الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم » .

« ادوارد سخاو » (١٨٤٥ - ١٩٣٠) : ألمانى . حقق مع تلامذته
مثل « ميرلين » كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد كاتب الواقدى .
فأخرجوا أول طبعاته فى أربعة عشر عاما هى ما بين (١٩٠٤ الى ١٩١٨) فى
ثمانية أجزاء وقاموا باخراج القسم الأول من الجزء التاسع سنة ١٩٢٠
للفهارس ، ثم صدر القسم الثانى من الفهارس سنة ١٩٢٨ ثم القسم الثالث
سنة ١٩٤٠ .

وكان أول نشر للكتاب من « ليدن » وقد تضمن الجزآن الأولان منه
« السيرة النبوية » ، ثم ترجم للبدرين فى الجزء الثالث ، ثم ترجم
للمهاجرين فى الجزء الرابع وكذا للأنصار ممن لم يشهدوا
بدرًا ، وفى الخامس ترجم للطبقتين الأولى والثانية من أهل
المدينة من التابعين والأولى من المكيين . ولمن نزل الطائف واليمن
واليمامة والبحرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وفى الجزء السادس ترجم لمن
نزل الكوفة من أصحاب النبى وللطبقة الأولى من تابعيهم ، وفى السابع
ترجم لباقي طبقاتهم ثم بدأ تسمية من نزل بالبصرة من الصحابة وطبقات
تابعيهم . ثم أفرد الجزء الثامن للنساء من حملة الدعوة فى عهد النبى ﷺ
ولمن روين السنة النبوية من بعده .

« فيستنفلد Wiistenfeld » (١٨٠٨ - ١٨٩٩) : وهو المانى
عاون « سخاو » فى اصدار الآثار البادية للبىرونى . وهو صاحب كتاب
« جداول الانساب » .

« اويجن متفوخ » (١٨٧٦ - ١٩٣٢) : تلميذ « سخاو » . وقد
عاونه فى تحقيق الطبقات .

« الفكتور كارل فيلهلم سترستين » (١٨٦٦ - ١٩٥٣) : من تلامذة
« سخاو » . وقد حقق الجزئين الخامس والسادس من الطبقات الكبرى ،
وأصدر كتابا عن تاريخ سلاطين الممالك فى الفترة ما بين سنة ٦٩٠ هـ ،
٧٤٢ هـ - ونشر « شمس العلوم » لـ « نشوان الحميرى » ، وأصدر « دراسات
نوبية » سنة ١٩١٩ .

« يوليوس ليبيرت » (١٨٦٦ - ١٩١١) : قام بتحقيق الجزء الرابع من الطبقات ، وأصدر كتاب تاريخ الحكماء لابن القفطى عام ١٩٠٣ معتمدا على الدراسات التمهيدية التى قام بها « أوجست ميلر » .

« فريدريك شفالى » (١٨) (١٨٦٣ - ١٩١٩) : قام بتحقيق الجزء الثانى للطبقات عام ١٩١٢ وهو الخاص بالسيره ، و « فريدريك » تلميذ « نولدكه » الألمانى ، وقد أصدر لأستاذه جزء من كتاب « تاريخ القرآن » مع التعليق عليه (١٩٠٩ - ١٩١٩) .

« يوسف هورفتس » (١٨٧٤ - ١٩٣١) : وهو المانى الأصل وقد وهب معظم سنى حياته لدراسة فجر الاسلام . ونال الدكتوراه سنة ١٨٩٨ عن « مغازى الواقدى » . كما أصدر من طبقات ابن سعد الجزئين اللذين يتعلقان بغزوات الرسول والبدرين ، وقام بتكليف من « ليون كايتالى » الايطالى (١٨٦٩ - ١٩٢٦) بالبحث عن المخطوطات ذات الفحوى التاريخى بمكتبات القاهرة ومراكش وأسطنبول ، وكان له اهتمام بالهاشميات لـ « الكميت » فحققها . ولا ريب أن اهتمامه بها نابع من اهتمامه بالتاريخ . وقد قام بالتدريس للغة العربية فى الهند بالكلية المحمدية الانجليزية الشرقية من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٤ ، كما عمل قارئاً رسمياً من قبل الحكومة للمخطوطات الاسلامية بالهند ، وكان فى فرانكفورت (١٩٢٥ - ١٩٣٢) من أهم الشخصيات التى تعنى بالدراسات القرآنية ، وبخاصة النواحي اللغوية .

وقد سبق أن هذه الطبقات مع كثرة مادتها العلمية ضمت الغث والthin . وخلطت الحق بالباطل . والصحيح من الروايات بالزائف الذى من أجله كان يتعفف العلماء من القراءة فيها وفى أمثالها من الكتب المليئة بالاسرائيليات كإنعراش . أو بالأخبار الواردة بدون تحقيق كالآغانى .

(١٨) فى المستشرقون - الطبعة الثالثة : « فريدريخ سواللى » .

الفصل الثالث

الشبهات المشتركة بين المستشرقين

- أصالة القرآن والتشكيك فى قصصه
• وفى الاسراء وعموم الرسالة •
- مطاعن المستشرقين فى اسماعيل
• وزواجه من جرهم وأنه الذبيح •
- اكذوبة المزاج الدموى - وانتشار
• الاسلام بالسيف •
- عقيدة القدر والحرب - بين جبرية
• الاسلام وجبرية الفلاسفة •
- زواج النبى بخديجة - وبعاثشة
• وحديث الافك •
- وصف النبى بأنه شاعر أو ناثر
• مبدع - ودعوى تأثير البيئة فى
• القرآن •
- ما سر الصراع بين الاسلام والكفر؟
• - تصوير النبى بأنه بطل -
• ومصلح •
- نقض مطاعن فى القرآن •

شبهات المستشرقين

مع شيء من التجوز نقول « شبهات المستشرقين » والحق أنها فى أغلب الأحيان : مفتريات وتشكيكات يقصدون الى اثارها قصدا ابتغاء الفتنة ، لا طلبا للمعرفة أو الهدى . وهذه المفتريات معظمها فال به أكثر من واحد : « اتواصوا به ، بل هم قوم طاغون » (١) .

ومن هذه النقاط المشتركة التى ترددت فى كتبهم ما نوردته فيما يلى :

● التشكيك فى أصالة القرآن :

من الشبهات دعوى أن القرآن قد استقى من الكتب المقدسة السابقة ما جاء فيه ، وقد يبالغ بعضهم فيتهم القرآن بأنه ناقل عنها قصصها مشوها - وسيأتى ذكره والرد عليه ، عند مناقشة « فرانك فوستر » .

● التشكيك فى قصص القرآن :

من حملاتهم التشكيك فى قصص القرآن حتى يتيسر التشكيك فى ثبوت القرآن كله . وتبعهم أحد المعاصرين فقال ان قصص القرآن انما هو للحكمة وليس خبرا عن تاريخ وقع . وفضح الله خبثهم فأثبتت الدراسات العلمية والأثرية أن كل ما فى القرآن حق وتاريخى .

ومن هذا القبيل ذهاب « كزيميرسكى » الى التشكيك فى حادثة قصة الفيل وارسال الله طيرا أبابيل .

والرد على هذا واضح ، فان انعرب حين نزلت سورة الفيل لم ينكروها رغم موقف التحدى منهم للنبي ﷺ وقوع الحادث من عصر الرسالة . ولولا يقينهم ومشاهدة بعضهم لها لكذبوا النبي فى خبرها .

● انكار ارهاصات النبوة :

هكذا قال « كزيميرسكى » (٢) و« سفارى » ، وقد تناولنا ذلك بالحديث فى نقد « سفارى » .

(١) الذاريات : ٥٣ .

(٢) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٢١ .

● شق صدر النبي :

انكره « سفارى » وسنرد عليه ، كما انكره « كزيميرسكى » فى مقدمته لترجمة القرآن عن تاريخ محمد ﷺ .

● عموم الرسالة :

ومما يثيرونه دعوى ان محمدا رسول للعرب وحدهم ، هكذا قال « سفارى » و « كزيميرسكى » (٣) وغيرهم ، وقد افضنا فى بيان عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، عند ردنا على المستشرق « م . سفارى » بما فيه الكفاية .

● انكار الاسراء والمعراج :

والتشكيك فى وقوع ذلك نهائيا أو فى وقوعه بالجسم مما اثاره المستشرقون ، وقد ردنا على « كزيميرسكى » و « سفارى » فى هذا فارجع الى ذلك .

● اتهام النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مؤلف القرآن :

من شبهاتهم انكار نزول القرآن ودعوى ان محمدا ﷺ هو صانعه ومؤلفه .

قال بهذا المسيو « جاستون فييت » فى كتابه « مجد الاسلام » من محمد الى « فرانسوا الاول » فى القرن السادس عشر الميلادى وقال : كانت أسرة بنى أمية أرقى من أسرة محمد فى الجاهلية .. وافترى مفتريات كثيرة . وهو كتاب يقع فى (٢٥٠ صفحة) عرضه وعلق عليه حسين يونس فى مقال ، وقال بهذا « م . سفارى » ، و « فلهاوزن » وآخرون .. ورددنا هذه الفرية عند مناقشة « سفارى » (٤) . وسيأتى الرد على هذا أيضا فى فصل « دعوى تأثير البيئة فى القرآن » .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٤) راجع فى كتابنا عنه الموضوعين : « هل الاسلام من صنع محمد ؟

وهل كان للنبي مطامع ؟ .. » .

دعوى أن محمدا صانع الاسلام

اعتقد « كزيميرسكى » هذا وبنى عليه أن محمدا هو الذى حرم رواج نساء النبى على المسلمين من بعده .

ويضطرب قوله فيقول : ان محمدا خالف القرآن فى تزوجه بأكثر من أربعة (٥) فلو أن محمدا هو صانع القرآن لما أوجد فى نصوصه ما يثير عليه شغب خصومه من قراء القرآن .

وقد قال « جورج سيل » الذى ترجم القرآن فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى : ان محمدا مخاتل اخترع الاسلام اختراعا . واتهمه بالوثنية ، وجرى « سفارى » فى التاريخ للنبى على هذا وقد رددنا عليه . اما وثنية محمد التى زعمها « جورج سيل » فهى دعوى يعرف كذبها الجميع فمن هو الذى هتف بالفران « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد » (٦) ، « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » (٧) وكما قال صديقى الأستاذ « ثالونى غبريال يسى » : ليس هنالك دين أنقى فى التوحيد من الاسلام .

وقد اضطرب « بودلى » مثل اضطراب « سفارى » فى الاعتقاد بأن محمدا ﷺ أخذ دينه من فم « بحيرا » بالرغم من أن مقابلة النبى « لبحيرا » كانت فى العاشرة من عمره ﷺ ، وأنه لم يقابل « بحيرا » الا مرة واحدة ، وقد قال : ان محمدا قابل فى سوق عكاظ (المجمع الأدبى والدينى) كثيرين فتأثر بذلك فكره ، ونضج عقله ، حتى كانت ثمرة هذه المقابلات « دين محمد » .

وكان سوق عكاظ جامعة دراسية فيها المحاضرون المنتدبون من أطراف المعمورة يجلسون الشهور لاعداد جيل . . وكان هذه الجامعة ليس لها تلميذ الا محمد « منتج الاسلام » - كما يزعم « بودلى » - وقد وقع كتاب

(٥) خاتم النبيين فى نظر المستشرقين ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٦) سورة الاخلاص . (٧) البينة : ٥

تاريخ الأدب العربى فى أحبولة المستشرقين هذه فجعلوا من عكاظ لا سوقا تجاريا كغيره من الأسواق ، ولكن مدرسة فلسفية وأدبية لم يجد التاريخ بمثلها - صهرت الأدب العربى فى بوتقة الجمال والكمال ..

انه سوق كسائر الأسواق أشبه بمولد السيد احمد البدوى او « ابراهيم الدسوقى » فى مصر ينعقد أياما ، ثم ينفذ فيه المرتزقة من بيع السلع والمرتزقة من الفكر بالشعر (المواويل) أو بالحيل البهلوانية والشعوذة .. أو بالدين كأدعياء التصوف ، وكل هؤلاء لا يمكن ومهما تفرغ المرء للتلمذ عليهم فهم أعجز من أن يصنعوا مفهوما للحياة الأولى والآخره ، وعالم الغيب والشهادة ، كالمفهوم الذى يعبر عنه بدين الاسلام ، وأن يورثوا أحدا ذلك المفهوم .

والحق أن « بودلى » فى تخيله أن رسول الله ﷺ أخذ من فم « بحيرا » لم يقصد نفى رسالته ، اذ انه اثبتها قائلا فى مقام آخر : ان بساطة النبى فى طعامه ولباسه - وفى يده أن تساق له الدنيا جميعا - لو أراد - دليل على أنه رسول الله .

● مسيحى ينقض قول « فييت » ، و « جورج سيل » :

وقد أصدر بشرى زخارى ميخائيل كتابه « محمد رسول الله .. هكذا بشرت الاناجيل » وعقد فيه فصلا لاثبات أن القرآن كلام الله (٨) واستدل بالأدلة الآتية على هذا :

١ - القرآن يتضمن ما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من قبل .

وهذا التشابه الذى ذكره زخارى فى الاستدلال على صدق دعوى النبى الرسالة هو الذى استدل به النجاشى حين قرأ جعفر بن أبى طائب القرآن عليه فقال : « والله ان هذا الذى تقرؤه والذى انزل على عيسى ابن مريم ليخرجان من مشكاة واحدة » ، والاستدلال بالتشابه فى الملامح الرئيسية

(٨) محمد رسول الله ص ١٤ نشرته دار « عالم الكتب » .

برهان علمى يتبع فى علمى الانساب (العيافة) والأجناس . وقد أفاض
الكاتب فى استقراء المبادئ التى جاء بها القرآن .

٢ - لو كان القرآن من عند محمد لما رفع قدر المسيح أو موسى الى
منزلة عالية . بل لكان أقل ما يجب هو الصمت عن معجزات موسى
وعيسى وغيرها كى لا يضع فى يد الخصم سلاحا ماضيا . كما هو فى شأن
المسيح .

٣ - لو كان محمد هو صاحب هذا القرآن ، ونسب هذا النظام
العظيم الى الله . أو الى أية جهة أخرى لكان ظلما لنفسه أشد الظلم اذ
بخسها حقها ، وحرمها هذا المجد الذى يؤهلها له هذا الكتاب العظيم الذى
يتحدى الانس والجن وأعجزهم أن يأتوا بمثله . ولكان من حق من يصدر
عنه هذا الكتاب المعجز الفاهر ان يكون فوق العالمين . مستندا الى ذاته
لا الى قوة الهية تسنده . ولذا كان القرآن الهى المصدر .

واما النبوة فقد استدل عليها بالآتى فى فصل عقده لهذا :

١ - بساطته وزهده كما قال « بودلى » .

٢ - لو كان محمد يبنى بدعوته تمجيد نفسه أو خاصة قومه لما جعل
لأهل الكتاب فى كتابه كرامة ومنزلة .

٣ - ولما قاوم المشركين منذ أول لحظة . بل استدرجهم ولم يفاجئهم
بعيب آلهتهم .

٤ - ولو انه كذلك يبنى مجده الشخصى لكان لهذه الفتوح عائد مالى
تضمه له خزينة . ولكنه مات ودرعا مرهونة عند يهودى فى شعير اشتراه
لطعام أهله ، أبحسب فى المخادعين والكذابين والمضللين . من يرد كل
هذه الدنيا التى وضعت بين يديه ؟ !!

٥ - بشارات الاناجيل بمحمد . وقد ذكرها وفند الشروح الخاطئة
لها ، مثال ذلك ما جاء فى سفر التثنية (١٨ : ١٧ - ٢٠) وقد عقد
لها فصلا خاصا يمكن الرجوع اليه .

٦ - ويمكن أن نضيف الى هذا أن ما نطق به النبي من حديثه يختلف فى بيانه عن أسلوب القرآن المعجز . وهذا الاختلاف الكبير بين الأسلوبين دليل على أن القرآن وحى نزل على النبي ﷺ وليس من ابداعه وانشائه، وهو دليل نبوته ، اذ الأسلوب من سمات الشخصية ، وقد رأينا القرآن يختلف عن أسلوب النبي ﷺ .

* * *

مطاعن المستشرقين فى اسماعيل عليه السلام

ان تجريح اسماعيل أو انكار علاقته بالعرب ، أو انكار علاقة النبي محمد ﷺ به وهو ابن ابراهيم الخليل الذى تعتر به العرب : أمور اهتم بها المستشرقون ، لأن القرآن والسنة اثبتا علاقة اسماعيل بابراهيم وبالكعبة وبمحمد ﷺ وبالعرب ، فهدم هذا أو التشكيك فيه هدم بلفرآن ولرسالة النبي الذى جاء به ، أو تشكيك فيهما .

وقد رد هاشم العربى فى تذييله هذه المفتريات ، وأجاب عنها الشيخ محمد حلاوة المرصى فقال : « ثم طعن فى اخبار اسماعيل كلها : (١) من سكناه مكة ، (٢) ومن مصاهرته لجرهم ، (٣) ومن كون اسماعيل هو الذبيح » .

● سكنى مكة :

وقد استدل فى انكاره سكنى مكة بثلاثة مواضع من التوراة .

أولها : مصرح بأن سكنى اسماعيل كانت بـ « فاران » ، وهى بركة بين بلاد مصر وديار « ثمود » .

وثانيهما : مصرح بأنه سكن امام اخوته بالشام بأرض كنعان .

وثالثهما : مصرح بأنه لما مات أبوه دفنه بقرية « المكفيلة » بأرض كنعان ، وبين هذه القرية وبين مكة مسافة لا يقطعها الراكب المجد فى اقل من عشرة أيام .

فلو كان اسماعيل فى مكة عندما أتاه نعى أبيه لما استطاع أن يدفن أباه
الا بعد عشرة أيام .

الجواب :

ان هذا الاختلاف فى النسخة الواحدة من التوراة فى الواقعة الواحدة
يرفع الثقة بها . ويمنع الاستدلال بنصوصها . فالدعوى باقية بحالها .
وأما نحن فلنا دلائل صحيحة وشواهد كذلك . منها :

(ا) قول « جرجيس صال » فى الفصل الأول من كتابه : ان العرب
سموا عربا لسكناهم العربية ، وهى أرض تهامة ، والمراد بها مكة ، لأن
لسان العرب فسرّها بذلك ، وقد استشهد بقول بعض الشعراء العرب يمدح
مكة والنبي ﷺ :

وعربة أرض لا يحل حرامها — من الناس الا اللوذعى الحلال
يريد بالعربة مكة ، وباللوذعى الحلال النبي ﷺ ، لأنها حلت له
لا لغيره يوم فتح مكة ساعة من نهار .

وقد قام الدليل — يعنى التواتر على الأقل — على أن العرب أولاد
اسماعيل ، فبالضرورة يكون المسكن واحدا ، والموطن واحدا . وفى التوراة
نصوص كثيرة على نسبة العرب لاسماعيل (٩) .

(ب) وقال « جرجيس » ايضا : ان التسمية بمكة لا تجهلها العرب ،
وظنى أنه مأخوذ من اسم واحد من أولاد اسماعيل .

(ج) وفى التوراة : الباب السادس والثلاثين من سفر الاستثناء
ما نصه « جاء الرب من سيناء ، وشرق من ساعير ، واستعلن من جبل
فاران » . وتوضيح هذا أن مجيء الرب من سيناء كناية عن اعطائه التوراة
لموسى ، وشارقه من ساعير كناية عن اعطائه الانجيل لـ « عيسى » .
واستعلائه من « فاران » كناية عن انزاله القرآن على سيدنا محمد عليهم

(٩) انظر رسالة اسماعيل فى التعقيب على « م . سفارى » فى كتابه
« مختصر حياة محمد » وسفر أشعيا : الباب ٤٢ والاستثناء : الباب ٣٦ .

الصلاة والسلام ، لأن « فاران » جبل من جبال مكة ، فهي المرادة بقول التوراة « سكن اسماعيل فى بركة فاران » لأن استعلان الله بالقرآن لم يكن الا بمكة وما جاورها .

(د) وقال « جرجيس » أيضا : ليس لذرية اسماعيل وجه فى دعواهم انهم عرب خلص ، لأن جدهم اسماعيل كان عبرانيا مولدا ، وانما صاهر جرحما ، اذ تزوج بابنة مضاض ، أحد ملوكهم ، فاختلطت ذريته بهم ، وصار ما معهم أمة واحدة . ومن المعلوم أن جرحما كانت فى مكة فهذا دليل سكناه مكة ومصاهرته جرحم .

وأما الأدلة على سكنى اسماعيل بمكة من القرآن والسنة النبوية عندنا نحن المسلمين فمعلومة فلا نطيل بذكرها .

● التشكيك فى زواج اسماعيل من جرحم :

استدل الطاعن فى دعوى زواج اسماعيل من جرحم بدلائل .

الدليل الأول : أن جرحما كانوا أهل عمل وثروة وانفة ، وكان اسماعيل فقيرا لا يملك الا سبعة أعنز ، وكان عبدا هجينا لكونه ابن هاجر التى هى أمة « سارة » وعادة العرب - وبخاصة الجرهميين - أن يأنفوا من زواج العبد بالحر .

بطلان الدليل : هذا الدليل باطل من وجهين :

أولهما : أن اسماعيل حر تابع لأبيه الحر ابراهيم ، ولأمه الحرة هاجر طبقا لنصوص التوراة التى تقضى بأن تصوير الأمة المستولدة حررة بمجرد ولادتها من سيدها ، فضلا عن أن هاجر تنتمى فى نسبها الى الملوك .. شاء الله أن تقع أسيرة . فهى ليست من سلالات الرقيق .

وثانيهما : أن جرحما لما أرادت السكنى بجوار « هاجر » من أجل ماء زمزم ورأوا عدم رغبتها قالوا لها : أنسكن بجوارك ، ولابنك الحق - متى كبر - فى ابقائنا واجلائنا ، وله الشطر من أموالنا ؟ فقالت هاجر :

نعم ان وفيتم . فلما ترعرع الغلام ووجدوه أفصحهم لسانا ، واكمنهم عقلا ، قاسموه أموالهم ، وفاء بالشرط ، فصار أكثرهم مالا كما روى ذلك الكامل وغيره .

ككيف يأنفون من مصاهرة من لو شاء أبقاهاهم أو أجلاهاهم ، وهم محتاجون اليه أشد الحاجة ؟ !

الدليل الثانى : قال بعض المؤرخين : ان جد هذه الزوجة الجرهمية اسمه عبد المسيح ، مع أن اسماعيل قبل المسيح بألفى سنة ، فاما أن الزوجية مكذوبة ، واما أن يكون اسماعيل المتقدم على الميلاد بألفى سنة قد تزوج بامرأة لم تكن ولدت ولا ولد جدها الا بعد المسيح . وهذا ما لا يقول به الا مخبول .

والجواب : ان ما كتبه مؤرخ ليس حتما أن يكون صحيحا .

ولو سلمنا بصحة ما قيل من أن جد زوجة اسماعيل كان اسمه عبد المسيح فانه لا يدل على أن المراد بالمسيح هو عيسى ابن مريم ، وذلك لأن المسيح فى الأصل اللغوى معناه المبارك أو المسحوق بالزيت الذى بارك الله فيه ، وهو وصف يصح أن يتصف به كل نبى تمسح بهذا الزيت ، بل ويتصف به غير الأنبياء أيضا وان لم يكونوا مباركين ، فقد كان طالوت ملك بنى اسرائيل يدعى مسيحا ، مع أنه - على زعم النصارى - صار فى آخر ملكه مفسدا شريرا بسبب غيرته من داوود عليه السلام عند قتله « جالوت » الفلسطينى واصراره العداوة له ، ثم غلب هذا الوصف على المسيح عيسى صلوات الله عليه ، ولذلك لا يذكر لفظ المسيح فى القرآن الا مقرونا به ما يعينه من ذكر الاسم أو النسبة للأمام : « المسيح عيسى ابن مريم » .

فاذا قلنا بصحة التاريخ ، فالمراد بالمسيح - الذى هو من جدود زوجة اسماعيل - مسيح آخر نسب ذلك الجد اليه ، على حد قولهم « عبد مناف » و « عبد الكعبة » .

الدليل الثالث : وهو قوله تعالى : « لتتذرع قوما ما آتاهم من نذير من قبلك » (١٠) .

(١٠) القصص : ٤٦ .

ووجه الاستدلال بالآية : أن اسماعيل لو كان صهرا للعرب لكان نذيرا لها . مع أن الآية نافية وجود نذير قبل محمد ﷺ .

والجواب :

(١) ان هذا الاستدلال أيضا باطل . لأن المراد بالقوم في الآية قريش خاصة .

(ب) أو العرب الذين بعث فيهم النبي ومن يأتي من دريتهم أو يعاصرهم أو يأتي من ذرية معاصريهم ، وبعبارة أخرى المراد بالقوم هم من كانوا موضوع النذارة والحديث ، وهو المعهود من الخطاب والحديث ..

وهذا لا ينافي أن اسماعيل أرسل الى غير قريش وهم جرهم . أو أرسل الى العرب الذين كانوا قبل مبعث محمد ﷺ . فالخالطون للنرسول ثابت يقينا أنهم لم يأتهم غير محمد ﷺ في زمانه . فالمراد بقوله « من قبلك » قبل اعلان رسالتك ، وليس المراد قبل عصرك على التأويل الثاني .

الدليل الرابع : قال الطاعن : ان نسبة العرب الى اسماعيل غير صحيحة ، وانما أنبأتهم بها اليهود - تحببا اليهم واستجلابا لنصرتهم ، وقد كانت اليهود تقول لهم : نحن وأنتم من ذرية ابراهيم ، وما زالت تكرر لهم الأكاذيب ، وكانت العرب أجهل من أن يردوا الأكاذيب .

والجواب : ان من علم حالة العرب وشهامتها ومعرفتها لخفيات الأمور لم يجوز عليهم الجهل بالنسب حتى يتعرفوه من اليهود . وكيف وهم أعلم الناس بالأنساب فقد كانوا يتكاثرون ويتفاخرون بها في أشعارهم ، وإذا كانوا يعرفون أنساب خيولهم وابلهم ونسبة سيوفهم ورماحهم الى صناعها .. أفلا يعرفون أنسابهم ، وقد روى أن حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ استأذن النبي في أن يهجو قريشا . فقال له عليه الصلاة والسلام: وكيف ونسبى فيهم ؟ فقال حسان : لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم » وقد كان العرب يعرفون الأنساب ويحرصون عليها كسبا لقلوب من تربطهم به

مصاهرة أو قرى وان بعدت ، ولأن نسب الفرد الى القبيلة كاثبات الجنسية فى العصر الحديث ، فلا بد لهذا من حفظ النسب ليعرف من فى أهل القبيلة تعداده ومن ليس فيهم . حتى تكون غاراتهم طبقا لمعرفة تعدادهم . وان لم يكن للتعداد احصاء مكتوب . ولأن معرفة الأنساب ضرورة عند المصاهرة وخطبة أى فتاة طبقا لقانون الكفاءة الزوجية عند النكاح .

ولو قرأ هذا الطاعن كتاب « قطف الزهور » تأليف « يوحنا أنكريوس » لنظر من فضل العرب ما يردع عن مثل هذه الخرافات ، ولو اطلع على كتاب « سل » الانجليزى الذى ألفه فى الاسلام لرجع طرفه خاسئا وهو حسير . حيث قال عند الكلام عن الحنفاء - أى العرب الذين آمنوا بالآخرة فى زمن الجاهلية ما ترجمته : « ان اليهود لم تخالط العرب بمكة ، ولكنهم لما هاجروا الى المدينة خالطوهم » .

وكان المسلمون يقولون لهم : ان أبانا وإباكم ابراهيم ، ونحن على دينه فكونوا معنا اخوة فى الدين كما نحن اخوة فى النسب ، ويتلون عليهم قوله تعالى : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه » (١١) .

وبهذا يبطل قول صاحب التذييل : ان العرب لما رأوا تعظيم اليهود والنصارى لابراهيم عليه السلام ، واستوى عند هؤلاء العرب الانتساب له ولغيره - اختاروه للانتساب اليه حيث كان معظما عند هاتين الطائفتين .

ويبطل قوله أيضا : ان اليهود فى أيام الأسر المصرى والبابلى تلقنوا من المصريين والكلدانيين ببابل تلك الخرافات ، فلما خلصوا وأقاموا بجزيرة العرب لقنوهم ذلك (١٢) .

● الذبيح اسماعيل ، لا اسحاق :

أما كون اسماعيل هو الذبيح ، وليس اسحاق كما يدعى خصوم الاسلام فواضح ، وقد تصدى لهذه الفرية قديما العلامة ابن القيم فى

(١١) البقرة : ١٣٠ .

(١٢) ثبات الايمان ص ٣٥ - ٤٩ .

مقدمات زاد الميعاد كما تعرض لها فى المتأخرين المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ، وخلاصة ما قاله : ان التوراة عند ما ذكرت الذبيح لم تنص على كونه اسحاق ، وانما ذكر لفظ اسحاق عند ذكر الذبيح حشرا . والدليل على ذلك الحشر :

١ - ان الذبيح وصف فى التوراة بأنه ابن ابراهيم الوحيد .
(الاصحاح : ٢٢ من سفر التكوين) .

ونحن اذا رجعنا الى اسحاق لم نجده وحيدا لابراهيم فى يوم من الأيام ، لأن اسحاق ولد وكان عمر اسماعيل نحو أربعة عشر سنة كما هو صريح التوراة ، وبقي اسماعيل حيا الى أن مات ابراهيم وحضر اسماعيل وفاته ودفنه .

٢ - ان ذبح اسحاق يناقض الوعد الذى وعد به ابراهيم ، وهو أن يكون لاسحاق نسل .

٣ - ثم ان مسألة الذبح وقعت بمكة ، واسماعيل هو الذى كان بها كما فى الاصحاح ٢١ من سفر التكوين (١٣) .

٤ - توارث العرب الفخر بـ « منى » من عهد ابراهيم عليه السلام ، لذا صار هذا من شعائر الحج ، ولو كان الأمر بالذبح لاسحاق لكان النحر بالشام ، ولكانت القرابين هناك .

٥ - ان أمر ابراهيم بذبح ولده اسحاق تدعو اليه الخلة التى لا يناسبها حب الولد ، وقد جرت العادة بأن الحب يكون لأول الأولاد اشد ، والأول هو اسماعيل ، فالامتحان به .

٦ - ان اسحاق هو ابن السيدة - أعنى « سارة » - واسماعيل هو ابن الجارية « هاجر » . وقد أراد الله الرحمة لسارة اطفاء لنار غيرتها . فأمر بابعاد « هاجر » وولدها ، والأمر بذبح اسحاق ينافى تلك الرحمة .

(١٣) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٠١ - ١٠٣

ط . دار الثقافة ببירות .

٧ - ان التبشير باسحاق نبيا كان مكافأة مع فداء الذبيح ، وجزاء لنجاح ابراهيم فى امتحان الله له :

« وفديناه بذبح عظيم • وتركنا عليه فى الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين • انه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » (١٤) •

فالوجود التاريخى لاسحاق بعد قصة الذبح ، فلزم ان يكون الذبيح هو اسماعيل وليس اسحاق •
وفى القرآن ايضا قال الله عن سارة : « فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » (١٥) •

ووجه الدلالة : ان الله بشر « سارة » باسحاق وبانه يعيش حتى يولد له يعقوب فلا يصح الأمر بذبح اسحاق ، والا ما اتت البشارة بـ يعقوب (١٦) •



مهاجمة القرآن فيما أورده عن تاريخ ابراهيم واسماعيل

١ - قال بعض المستشرقين - كما فى دائرة المعارف الاسلامية - :
القرآن يناقض التوراة فى اسم والد ابراهيم الخليل مما يدل على افتراء محمد على الله للقرآن • وزعم « مراتشى Prodrani Maracci » (١٧) ان آزر تحريف لكلمة (Agae) التى وردت فى تاريخ الكنيسة ليوزبيوس ، ولم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه تلك الفقرة التى ورد فيها هذا الاسم - وهو قول بعيد الاحتمال - على القائلين بنقض التوراة لما فى القرآن •

والجواب : ان هذا لم يقله اليهود أنفسهم مع شدة تربصهم وكيدهم للاسلام فى عهد النبى ، فكلمة « آزر » التى فى القرآن كانت تطلق بدلا

(١٤) الصافات : ١٠٧ - ١١٢ (١٥) هود : ٧١

(١٦) ثبات الايمان ص ٣٩ ، ٤٠ •

(١٧) مراتشى : قسيس ايطالى عاش فى القرن السابع عشر ، ولم يسمح له بنشر ترجمة للقرآن الا بعد الحاق معارضا للقرآن بها •

من كلمة « تاريخ » . اما لأنها لقب ، واما لأنها صفة غلبت على والد ابراهيم . ولا غضاضة فى قول بعض العلماء : ان القرآن عبر بكلمة « لأبيه أزر » جريا على عادة العرب من اطلاق لفظ « أب » على العم . فلا خلاف اذن . والصواب أن « أزر » هو الاسم الصحيح لأبى ابراهيم ، وأن التوراة هى المخطئة والمحرفة ، بل انها لتحرف اسم ابراهيم فتجعله ابرام ثم بعد أن بلغ ٩٩ عاما سمته ابراهيم (١٨) .

٢ - وقالوا : القرآن لم يذكر عن ابراهيم أنه بانى الكعبة مع اسماعيل عندما كان محمد فى مكة . وانما ذكر هذا فى المدينة تأليف للعرب . وقال نيكتاس البيزنطى بذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع مستندا الى سفر التكوين .

والجواب : ان الله ذكر ابراهيم وكان معروفا لدى جميع العرب انه رسول الله وبانى الكعبة ، وقد تحدثت التوراة نفسها عن ابراهيم وهاجر واسماعيل (ص ١٥ فقرة ١٨ و ص ١١ فقرة ٢٠) فكيف يقال : ان محمدا مخترع هذه القصة وقد كان اليهود والعرب جميعا يعرفونها من قبله ؟

وقد رد جوستاف ا . فون جرونيياوم على نيكتاس بأنه لم يستند الى دليل تاريخى فى انكاره ، غير مقارنة ما فى الكتابين . وعدم ذكر الشئ ليس دليل عدم وجوده .

٣ - وقالوا : صرح القرآن بأن الله لم يرسل للعرب رسولا . فكيف يقال : انه أرسل اليهم اسماعيل وابراهيم . مع قول القرآن « لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك » (١٩) ؟ .

والجواب : الذى نفاه القرآن هو ارسال رسل للعرب المستعربة الذين جاءوا من نسل اسماعيل المختلط بالجراهمة . أما غيرهم فقد صرح

(١٨) انظر سفر التكوين : (١١ : ٢٧ - ٣١ و ١٢ : ٤ و ٧ - ٩ : ١ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨) وكتاب اسرائيل لمحمد بيومى مهران : ص ١٦٠ - ١٦٤ .
(١٩) القصص : ٤٦ .

القرآن بذكر ارسال الرسل اليهم كهود المبعوث فى قوم عاد وصالح المرسل الى ثمود واسماعيل المرسل الى جرهم فى اول ادوار طبقة العرب المستعربة (الاسماعيليين) . اما العدنانيون الذين نزل الخطاب للنبي بشأنهم فلم يرسل اليهم رسول قبله ﷺ .

الوحى

الوحى عند علماء المسلمين هو اعلام الله تعالى أنبياءه اما بكتاب او برسالة ملك فى منام ، او الهام بأن ينفث فى روع النبى ما يريد الله ابلاغه له .

سأل الحارث بن هشام رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته فى اليوم الشديد البرد ينفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا .

وفى الحديث أيضا : « بينما أنا ماش اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض ، ففزعت منه ، فرجعت » .

وعند نزول الوحى على الرسول ﷺ يزداد وزنه حتى يثقل على ناقته اذا نزل عليه الوحى وهو راكبها . قال ابن القيم فى زاد المعاد : ان راحلته لتبرك به الى الأرض اذا كان راكبها . وقد قال ريد بن ثابت كاتب الوحى فى صفة حال الرسول حين نزل عليه الوحى وكان فخذاه على فخذ زيد : فوالله ما حدث ووجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فظاهرة الوحى كانت مشاهدته ومعها الوعى الكامل بما أوحى به اليه ، ولم يخلط عليه الصلاة والسلام - ولا مرة واحدة - طيلة العصر

القرآنى الذى يضم كل مراحل التنزيل بين شخصيته الانسانية المأمورة المتلقية ، وشخصية الوحى الأمرة المتعالية .

وكان اذا نزل عليه الوحى ولو ببعض آية دعا أحد كتاب الوحى فأملى عليه ما نزل من القرآن، وضمنا لحفظ القرآن من أن يخلط بالحديث قال : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحاه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار » وفى رواية بحذف لفظ « على » - أو من كذب متعمدا .
هذه هى بعض صور نزول الوحى ..

أما كيف كان التلقى ، فاختلف الفلاسفة والمتكلمون فى ذلك .
وجميعهم يهرف بما لا يعرف ، لأن ذلك مما استأثر الله ورسوله بعلمه ، فلم يرد نص يبين حال النبى فى ذاته ، هل انخلع من صورته البشرية الى صورة الملكية ، أم انخلع الملك الى البشرية كما زعم الزركشى ، لأن الملك له القدرة على التشكل فى صور شتى ؟ وقد رجح ابن خلدون القول الأول .

ولا يمكن انكار الوحى لمشاهدة السابقين لظاهرتة على النبى ﷺ ، ولأنه - كما قال الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » : قد جرب الله ذلك على خلقه بأن أعطاهم نموذجا من ناحية النبوة ، وهو النوم ، اذ النائم قد يدرك - يعنى فى الأحلام - ما سيكون من الغيب ، أما صريحا ، وأما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير للأحلام .

أما عند المسيحية : فالوحي هو الهام الله من يصطفيه من خلقه لتدوين معلومات سمعها ، أو تنبؤات وتوقعات استشعرها ، وليس الوحى -

عند النصارى - خطابا من الله للنبى ، كما هو الأمر فى الاسلام .
فالانجيل تأليف الذين كتبوها ، بالهام وتوفيق ربانى ، وليس ابلاغا من الله لهم بواسطة الملك - بنصوص محددة المعنى والعبارة .

وأما فى أسفار العهد القديم فتقول : « ان الرب كلم موسى » ، أو « وكان الى كلام الرب قائلا » وجاء فى سفر حزقيال : « ان السموات انفتحت فرأيت رؤى الله ، صار كلام الرب الى حزقيال » .

ومن ثم : فان أنبياء بنى اسرائيل يتلقون الوحي « اما من الله مباشرة ، أو عن طريق « رجل الرب » ، أو عن طريق الرؤيا » .

التشكيك فى الوحي

(١) قال كزيميرسكى : الوحي عزيمة تبلرت وراى « انقذح فى قلب النبى » (٢٠) . فصدر عنه فى حالة انفعال بالغ وتحمس شديد بحيث لم يكن يستطيع أن يعتبره غير وحي أنطقه الله به .

والجواب : وهذا قول ساقط ، لأننا جميعا نصادف كثيرا انقذاح آراء فى قلوبنا وارادات مصممة لب نعزم عليه ، ولكن لا يقوى هذا على أن يكون كالقرآن ، لا فى بلاغة لفظ ، ولا فى رائج المعنى ، ولا فى امسك بمجامع القلوب . وقد كان للنبي ﷺ آراء ناضجة لم تبلغ أن تكون قرآنا . وهو ذاته قد نبه الى أن يكتب القرآن ولا يكتب حديثه ، وقد ميزه قومه بحاستهم اللغوية الأصيلة ، واحسوا بالفرق بين القرآن وبين غيره . مما يدل على تميز وخصائص للقرآن عرفوها .

(ب) وذكر الدكتور محمد حسين هيكى أن مصريا نقل من المستشرقين القول بأن الوحي ظاهرة مرضية وأن النبى كان يصاب بالصرع ، وأن أعراضه كانت تبدو عليه فتعثره التشنجات وتخرج من فمه الرغبة حتى اذا افاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول انه وحي الله اليه ، وهو ليس الا اثر الصرع .

وقد أجاب عن ذلك رحمه الله قائلا (٢١) : ان « تصوير ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحي على هذا النحو خاطيء من الناحية العلمية أفحش الخطأ ، فنوبة الصرع لا تذر عند من نصيبه أى ذكر لما مر به اثناءها . بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد افاقته من نوبته نسيانا تاما ، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . هذه أعراض الصرع

(٢٠) خاتم النبیین فی نظر المستشرقین ص ٣١ .

(٢١) حياة محمد ص ٤٠ - ٤٣ الطبعة الثانية .

كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى أثناء الوحى .
بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ،
وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه .

« هذا ، ثم ان نزول الوحى لم يكن يقتزن حتما بالغيبوبة الجسمية
مع تنبه الادراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيرا ما يحدث والنبى
فى تمام اليقظة العادية » كما حدث فى نزول سورة الفتح على النبى
وهو قافل الى المدينة بعد ابرام صلح الحديبية .

ينفى العلم اذن أن الصرع كان يعترى محمدا ، ولذلك لم يقل به
الا الأقلون من المستشرقين الذين افترضوا على القرآن أنه حرف ، وهم لم
يقولوا به حرصا على حقيقة يلتمسونها ، وانما قالوا به ظنا منهم انهم
يحطون من قدر النبى العربى فى نظر طائفة من المسلمين . أو حسبوا
انهم يلقون - بأقوالهم هذه - ظلا من الريبة على الوحى الذى نزل عليه ،
لأنه نزل عليه - فيما يزعمون - أثناء هذه النوبات ؟ ان يكن ذلك فهو
الخطأ البين كما قدمنا ..

« .. فالصرع يعطل الادراك الانسانى وينزل بالانسان الى مرتبة
آلية يفقد أثناءها الشعور والحس ، أما الوحى فسمو روحى اختص الله به
أنبياءه ليلقى اليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كى يبلغوه للناس ،
وقد يصل العلم الى ادراك بعض هذه الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها
بعد أجيال وقررون ، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله
الأرض ومن عليها ، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين
الصادقين الى حقيقتها ، على حين تظل قلوب عليها أقفالها جاهلة اياها
لغفلتها عنها » .

حقا ان الوحى ظاهرة لم يعرف العلم تفسيرها حتى الآن . ولكن
لا عيب على العلم فى هذا ولا عجب . « وعلمنا ما يزال قاصرا عن
تفسير بعض الظواهر الكونية القريبة منا » كالشمس والقمر وغيرها من
الكواكب التى نراها .. فاذا كان هذا واقعا فى الحياة العادية وفيما
نشاهد ... كان البدار الى محاولة تفسير ظواهر الحياة جميعها -
بما فيها الوحى - على الطريقة العلمية محاولة عقيمة واسرافا معيبا .

« ولقد كان الوحي بعض ما شهد المسلمون أثناء حياة محمد ، وكان القرآن كلما ذكره لهم زادهم به ايمانا ، وكان منهم اذكىء غاية الذكاء . وكان منهم يهود ونصارى طال الجدل بينهم وبين النبی العربي ثم آمنوا برسالته ولم ينكروا عليه من أمر الوحي شيئا ، ولقد حاول قوم من قريش أن يتهموه بالسحر والجنون ، ثم أقروا أنه ليس بساحر ولا بمجنون ، وتابعوه وآمنوا بما جاء به . أما وذلك ثابت يقينا فمما يباه العلم وتتنزه عنه قواعده انكار حدوث الوحي والخط من قدر صاحبه ونعته بأوصاف ينكرها العلم ولا يقرها .

ومع كل هذا فالثابت عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت أنه حينما كان يتغير النبی عند نزول الوحي كان يسمع عند وجهه ﷺ صوت كدوى النحل بينما المصاب بالصرع يسمع أصواتا لا وجود لها في حس غيره (٢٢) .

وقال درمنجم : غفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون الذين افترضوا وجود الوحي من الصرع والاستيحاء والخيال المتقدم - عن حياة الخيام في الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الحنق والدهاء ليبقى زعيما بسيطا لعصبة من الأعراب .

فحياة محمد كانت منتظمة موزونة قبل بعثته بما يشمل بعد النظر ، وما انفكت تكون كذلك بعدها الا في حالات الوحي . قال أرميا « كالأولياء الصادقين ، وكأنبياء بنى اسرائيل . انسحق قلبي في وسطى . ارتخت كل عظامي . صرت كإنسان سكران ومثل رجل غلبته الخمر من أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » .

ثم ان الطب لم يعرف حالة واحدة كان فيها المريض بالهستيريا أو بأى نوع من هذه الأمراض العصبية قال - وهو واقع في غيبوبة - كلاما مفهوما له معنى معقول ، وانما كل من يشاهد المريض - وهو على حالته هذه - يسمع منه هذيانا ، بخلاف حال النبی ﷺ .

(٢٢) رابح لطفى جمعة : القرآن والمستشرقون ص ٢٥ نقلا عن « اسد الغابة » وكذا ص ٢٧ نقلا عن الأساتذة كرتيبي والاندوز وشاركو في تعريفهم للهستيريا .

ومثل هذا ما قاله عاموس المدثر ببردته كمحمد .

ولم تنشأ رؤى محمد ووحيه عن مرض فيه . بل كانت تبدو عليه
علائم المرض بسبب الرؤى والوحى . وهنالك ظواهر مشتركة بين مريض
الأعصاب . أو المهووس ، وبين الموحى اليه الصادق فالأول منفعل غير
فاعل ، والآخر مبدع فاعل .

« ثم ان من الجائز أن يقال : ان البنية المريضة قليلا تساعد على
التصوف ، ويزيدها التصوف مرضا . والحق ان محمدا كان مبرا من مثل
هذه الأمراض على الدوام ، عقد كان تام الصحة الى أن بلغ سن
الكمال ، ولم تبد العوارض عليه بعد هذه السن الا عند تقبل الوحى .
وانت اذا استثنيت هذا ، وأنت اذا عدوت المرض الذى استولى عليه
فى الستين من عمره رأيته لم يصب بغير وجع الراس ثلاث مررات بسبب
أسفاره الطويلة تحت وهج الشمس ، فيعالج بوضع المحاجم على
رأسه » (٢٣) . ولقد قال بلاتوف فى تاريخ العالم : ان غاية ما نستطيع
الجزم به هو تبرئة محمد (ﷺ) من الكذب والمرض (٢٤) وقال
المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون : ان محمدا (ﷺ) كان على تمام
الاعتدال فى مزاجه .

وقد قال المستشرق ر . ف . بودلى فى كتابه « حياة محمد »
ما يأتى : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخّر
عقله بأفكار لامعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى
ظل يتمتع بها « محمد » حتى قبل مماته بأسبوع واحد . وما كان
الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا . وما رفع الصرع أحدا الى مراكز
التقدير والسلطان يوما . وقد كان من نتائجه مثل هذه الحالات فى الأزمنة
الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف
بالتعقل ورجاحته فهو « محمد » ولا شك » . ويقول ماكس مايرهوف -
فى كتابه « العالم الاسلامى » : لقد أراد بعضهم أن يرى فى محمد (ﷺ)
رجلا مصابا بمرض عصابى ولكن تاريخ حياته - من أوله الى آخره - ليس

(٢٣) حياة محمد لدرمنجم ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢٤) القرآن والمستشرقون ص ٢٧ .

فيه شيء يدل على هذا ، كما أن ما جاء به فيما بعد - عن التشريع والادارة - يناقض هذا القول .

ونقل الأستاذ زكريا هاشم عن الدكتور يحيى طاهر أستاذ الأمراض العصبية بكلية الطب جامعة القاهرة : ان النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية ، ولكنها ناتجة عن تغيرات، فسيولوجية عضوية في المخ يفقد معها المريض شعوره . أما الأحلام والهلاوس التي تمر بذهن المريض ، في أثناء النوبة الصرعية فما هي الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالانسان ، أو فكر فيها ثم حفظت في ثنايا المخ . وتكرر هذه الأحلام أو الهلاوس بتكرار النوبات بشكل واحد .

وبتطبيق هذا على ما كان يحدث للنبي ﷺ عند الوحي . نجد الوحي شيئاً آخر . فالقرآن ليس شيئاً متكرراً في كل مرة نزل فيها الوحي . . والمتكرر ليس على نمط واحد . ولكنه في كل مرة يأتي بجديد نافع مرتبط بما قبله وبما بعده . وبلغة فصحي لم يتعلمها النبي ولا نطق بها أحد قبل الرسالة . فكان هذا دليلاً على أنه رسول الله ، وأن ما نزل عليه هو وحي الله وليس نتيجة صرع .

(ج) مغالطات فلهاوزن :

أما المشرق الألماني « يوليوس فلهاوزن » في كتابه « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » فيقرر أن الذات الالهية في الاسلام ذات حقيقية لها صفات الخلق والتدبير والعناية . وليس كاله الفلاسفة أشبه بمعنى مجرد .

ولكنه يقول : « يبرز في القرآن شأن القدرة الالهية تارة ، وشأن العدل الالهى تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يجيء به النبي - عليه السلام - دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ولا يشعر « محمد » - عليه السلام - بما في ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفاً ولا واضعاً لمذهب نظرى في العقائد (Dogmatics) .

فالكاتب يتسلل برفق ودون الجهر بما يبطنه الى التشكيك في القرآن بأنه مضطرب ويقول أن اضطرابه في ذكر صفات الله « بحسب ما يجيء

به النبي - فليس بحسب ما ينزله الله عليه . ولا شك أنه جاهل أو متجاهل للحكمة في ذلك . فالقرآن يرمى الى اشعار المؤمن بأنه داخل في قدرة الله المطلقة فيخشاه ولا ينساه ، ثم يشعر بعدله فتطمئن نفسه الى صنع مولاه فهو كقوله سبحانه « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول » (٢٥) ، ولا تناقض الا في ذهن الكاتب واين التناقض في اضافة صفتي القدرة والعدل أو الجبروت والرحمة الى الله تعالى ؟

ثم قال : ان ما قرره الاسلام من أشياء تميزه عن اليهودية والنصرانية انما هو تعريب له أو تحريف له ، بحيث يأخذ الشكل العربي ، وما هو بعربي كالروايات العربية والنظريات الاجتماعية والسياسية المستوردة .

وتجاهل الكاتب أن النبي ما كان يقرأ العبرية ولا العربية حتى يعرب الكتاب المقدس ، كما تجاهل أن المسيحية واليهودية من قبله كان لهما دعاة كبار لم يستطيعوا صبغ المجتمع العربي بدين منهما . وهل في عالم المعقول أن يترك الأصل - مع القدرة عليه ويصار الى التقليد ؟

ثم اتهم فلهاوزن النبي بأنه لم يرد أن يتجاوز بأتباعه الدائرة التي ترسمها رابطة الدم ، « بل من الجائز أيضا أنه لم يكن يستطيع تصور امكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم ، ولذلك فانه لم ير أن رسالته هي أن يضم الى دعوته أتباعا متفرقين هنا وهناك . . فكان يطمح الى أن يجعل أمته العربية كلها جماعة دينية له » .

وفلهاوزن يتجاهل بدعواه أن الاسلام عنصرى - ما جاء على لسان رسول الله نفسه « وكان النبي يبعث في قومه خاصة ويبعث الى الناس كافة » ويتجاهل المعروف من أن المواطن المسلم وهو في دولة الاسلام ، كل معتنق للاسلام مهما اختلف لسانه وجنسه ، وتجاهل نصوص القرآن في عالميته للناس كقوله جل شأنه « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٢٦) ، وسنفرد لاثبات أن النبي خاتم المرسلين فضلا خاصا ، وفيه نبين أن من دواعيها ما ذكرناه من أنه دين عالمي في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(د) تشكيكات كزيميرسكى فى الوحى :

١ - وكزيميرسكى لم يتهم الوحى بأنه ثمرة الصرع .. ولكنه يمهّد فقط لقبول هذه القضية ، فيقول : ان النبى كان مصابا بالصرع فى طفولته ، وهذا الصرع هو الذى جعل حليلة السعدية تسلم « محمدا » الى أمه قبل انقضاء الأجل المضروب بين حليلة وأمنة (٢٧) .

والصرع مرض منفر والأنبياء يستحيل عليهم الاتصاف بما ينفر الناس منهم ويبعدهم عنهم ، وسيأتى بيان السبب عند ذكر شق الصدر للنبى ﷺ .

٢ - كما لجأ « كزيميرسكى » الى التشكيك فى الوحى بطريقة ثالثة ، وهى ابراز الوحى فى صورة حلم ، فأخذ برواية ضعيفة رواها ابن هشام فى أول ما نزل من الوحى . وهو قوله تعالى من سورة « العلق » : « اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق » (٢٨) فقال : ان نزولها كان مناما .. وهى رواية تخالف الصحيح الذى رواه البخارى من نزول جبريل عليه بالسورة جهرا وعلانية ، وزاد ذلك وثوقا ما رواه البخارى فى نزول آية المدثر عن جابر عن رسول الله ﷺ قال « بينما أنا ماش اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى • فانزل الله تعالى « يا ايها المدثر • قم فأنذر • وربك فكبر • وثيابك فطهر • والرجز فاهجر » (٢٩) فحمى الوحى وتتابع « .

وقد تبين من قبل أن الوحى قد يكون رؤيا صادقة وقد يكون فى صور أخرى سبق ذكرها وقد اشار اليها القرآن فقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه ما يشاء ، انه على حكيم » (٣٠) .

٣ - وفى موطن آخر ينسب الى محمد ﷺ انزال الآيات فيقول : وقال محمد « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (٣١) كما يقول : ان

(٢٧) خاتم النبیین فى نظر المستشرقین ص ٢٢ .

(٢٨) المدثر : ١ - ٥ .

(٢٨) العلق : ١ ، ٢ .

(٣١) آل عمران : ١٢٣ .

(٣٠) الشورى : ٥١ .

محمدا نسب هزيمة أحد الى غرور المسلمين ، فأنزل القرآن بذلك .

وكزيميرسكى بهذا يدل على جهله ، فالغرور الذى نسبته الى المسلمين
نم يكن يوم أحد ، ولكنه الاعتماد على الكثرة يوم حنين « ويوم حنين اذ
أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت » (٣٢)
ثم ان أحدث بحوث علماء الطبيعة الآن أثبتت امكان وجود الوحى بالأدلة
العلمية (٣٣) .

الزواج بخديجة رضى الله عنها

● هل كان زواج النبی خديجة لهوى مادی ؟

اتهم بعض المستشرقين النبى بأنه كان يهاب خديجة لمالها الذى
يفيد منه كثيرا .

وقد أجاب عن هذا الأستاذ « ميور » بقوله : ان الرسول لم يتمتع بتلك
الثروة . ولم يتلذذ بها . بل قضى حياته فقيرا . . ويروى أنه مات ودرعه
مرهونة . . « وزواج أساسه المادة لا يمت الى السعادة بشئ . بينما
نحن نعلم أن الرسول كان سعيدا مطمئنا خلال السنين الطوال التى قضاها
مع زوجته خديجة بالرغم من اضطهاد قريش وايذاها له . وطالما حن
ليها بعد وفاتها ، وذكرها بالخير وعرفان الجميل » .

وأجاب « ستويارت » بأن الرسول كان فى عصر شاع فيه تعدد
الزوجات سواء بين الملوك والأمراء ومن سبقه من الأنبياء . ولكنه لم
يجرح قلب خديجة . ولم يثر غيرتها بزواجه من امرأة فى حياتها .

وقال آخر : ان زواج الرسول بخديجة كان فاتحة حياة زوجية سعيدة .
اذ كان محمد مثال الوفاء بالرغم من الفرق الكبير بينهما فى السن .

وقال الأستاذ « لان بول » : لو صح ما نسب البعض من أن وفاء الرسول

(٣٢) التوبة : ٢٥ .

(٣٣) خاتم النبیین فى نظر المستشرقين ، ص ٥٥ ، ٥٤ .

لخديجة لم يكن مبعثه الاخلاص فقط . بل كان التهيب من مقامها المالى والاجتماعى خشية مطالبتها اياه بالطلاق .. لراينا محمدا يحمد الله على وفاتها . ويرمى بذلك العبء الثقيل متهافتا الى حياة اكثر حرية . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك . اذن ما كان هذا الوفاء الا نتيجة حب وشكر لها (٣٤) .

*** حديث الافك

● هل يحتمل صدق حديث الافك ؟

قال « سبرنجر Sprenger » : ليس هناك دليل على أن عائشة قد اجتازت حرمة الزوجية . ولكن بما أنها زوجة رجل شيخ وجدت نفسها وحيدة فى خلوة مع شاب . فلا يستبعد أن تصح التهمة . غير أن الرسول وجد فى الوحي ملجأ يأوى اليه ابان هذه الكارثة . ويؤيد هذا نفر آخر من المؤرخين الأجانب منهم : (Scholl) و (Abbot) .

وهى أقوال لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ثبوتها ، كما أنهم لم يعنوا بمناقشتها مناقشة علمية نزيهة ، يحاولون فيها اثبات «حادثة الافك» ، أو نفيها بأدلة تاريخية قاطعة ، وانما حكموا المنطق الذى لا يتفق مع الطريقة العلمية الحديثة القائمة على سرد الحقائق مجردة . ثم نقدها وتحليلها للخروج من ذلك كله برأى سليم قائم على أساس البحث والتحصيل . غير أن بعض المستشرقين - ممن أطرحوا الهوى وترفعوا عن التحيز وسلخوا مسلك الدليل المادى والاستنتاج الصحيح - استبعدوا حديث الافك . منهم موير حيث قال بعد الاشارة اليه : « ان سيرة عائشة قبل وبعد الحادث لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة (٣٥) » . وأجابت زاهية قدوره عن سؤال طرحته فقالت (٣٦) : هل كان من المعقول أن يكون لعائشة علاقة من أى شكل كان بصفوان بن المعطل ؟ نحن نجزم بانكار ذلك كل

(٣٤) عائشة أم المؤمنين ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣٥) حياة محمد لموير ص ٣٠٤ .

(٣٦) عائشة أم المؤمنين ص ٩٧ - ٩٩ .

الجزم . ولا سيما اذا تذكرنا أن الذى أشاعه هو عبد الله بن أبى بن سلول زعيم الخزرج فى المدينة ، وقد اشتمل قلبه على بغض الرسول والحسد له ، معتقدا أن الرسول سلبه ملكه ، وتذكرنا رغبة عبد الله فى تهديمهم الاسلام ليفسح له المجال الى الانتصار على رجال الأوس ، والتزعم على أهل المدينة . فكان تارة ينافس زعماء الأوس بالتزلف الى النبى وأخرى يلجأ الى اعداء الاسلام ، ويؤلبهم على الرسول والمسلمين ، فلقد وجد فى حديث الافك فرصة سانحة يطعن فيها الرسول ويشهر بحليلته ، ويروى أنه قبيل حديث الافك بأيام قليلة تنازع رجلا من الأنصار والمهاجرين على بئر ماء واقتتلا فغضب عبد الله بن أبى ابن سلول فقال : « أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما عدنا وجلابيب قريش الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم اقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم . احللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم . اما والله لو امسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم .. وبلغ الحديث مسامع الرسول ﷺ . وأسرع عبد الله فحلف بالله ما قلت هذا ولا تكلمت به ، واحر برجل هذه أخلاقه وتلك سمعته أن تسقط روايته .

أما من جهة المتهم « صفوان بن المعطل » فسيرته لا تستدعى الشك ، ولم يذكر بسوء قط . بل انه كان مؤمنا بالرسول ودعوته . خيورا على الاسلام . فجاهد وحضر كثيرا من الغزوات ومات شهيدا . فاحترامه ومهابته لزوج النبى وبنت الصديق التى كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى الغزوة نفسها كانت اعظم من أن تسمح له بالتفكير فيها بسوء .

أما عائشة من جهتها - وهى التى تقول : انها لم تعقل أبويها الا وهما يدينان بدين الاسلام ، والتى نشأت وترعرعت على فضائل الدين الحنيف ، فى بيت قائده الأكبر ، والتى تزوجت نبيه العظيم فكانت تؤمن به . وتعمل بدينه - فأقول : انه من الظلم الشك فى طهرها ، ولاسيما أن هذه العلاقة المزعومة كانت نتيجة صدفة واحدة ، والا لم تكن لتخفى عنهن قالة السوء والحساد والمنافقين والضرائر .

ثم ان عائشة كانت مع صغر سنها تحب الرسول حبا جما . ومن مظاهر هذا الحب غيرتها الشديدة ، ولم تتورع عن تدبير المؤامرات ضد سائر ضرائرها وبخاصة الجميلات والمحوبات لدى الرسول . والى جانب ذلك الحب الصاحب وجد الاعجاب والفخر بزواج كان أعظم رجل تطمع فيه المرأة ، فحصلها عليه اذن كان النعمة التى لا يضاهاها شئ . وهى التى تقول « لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر النبى أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، ولقد توفى وان رأسه لفى حجرى . ولقد قبر فى بيتى ، ولقد حفته الملائكة فى بيتى ، وان الوحي لينزل عليه فى أهله فيتفرقون عنه وان كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه ، وانى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عذرى من السماء ، ولقد خلفت طيبة عند طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما » (٣٧) .

وهل من المنطقى ان من تحب رجلها وتعجب به ذلك الاعجاب الشديد تبدله بمن هو اقل منه منزلة ، خاصة بعد ما نالت من زوجها حبا وتقديرا ، ليس فى امكان أحد أن يعطيها لها ؟

وهل من المعقول أن يكون محض صدفة الاجتماع الأول سببا فى علاقة كالتى اتهمت بها دون سابق معرفة أو اتصال ؟

قد يقول البعض : انها افتتنت بشبابه . فهل لهذا السبب من القوة بحيث يجعلها تتجاوز عقيدتها الدينية وطبائعها العربيه وتنساق مع رغائب طارئة - كما يريد البعض أن يصور - تهدم كل ذلك الكيان الضخم الذى امتلأت به نفسها من الايمان والاسلام ، وللرسول من الشباب والحيوية والنضارة ما يوازي شباب الدنيا كلها . فما أكثر الشباب فى سنهم وهم شيوخ فى قلوبهم وعواطفهم وحيويتهم . وقد كان للرسول قدرة فائقة فى محادثة نسائه وملطفتهن وارضائهن بحسن التعبير عن عواطفه الزاخرة ونشاطه الجم . فما اكثر ما صنع . وما اقل ما تقاعس وهذا !! فقد قضى

(٣٧) رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره : ج ٨ ص ٧٠ هـ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ (١٩٣٩ م) .

حياته كلها محاربا مجاهدا في سبيل نشر راية الحق والفضيلة في الأرجاء الواسعة ، وهدم الباطل ، وثار على الظلم والفساد بتلك الحيوية ورحابة الصدر التي تحملت ثقل الجهاد ومرارة الحياة ، ولكن ذلك لم يشغله عن العائلة والبيت ، فكان أحسن أب ، وأرحم زوج وأرقه ، عادلا أعظم العدل . رغم صعوبة الموقف في الجمع بين عدد كبير من النساء . فرجل هذا شأنه وتلك صفاته ، لا تستطيع أى زوجة الا ان ترتبط به أشد الارتباط ، وأن تخلص له كل الاخلاص ، وأضف الى ذلك ما قاله الطبرى في تاريخه (ج ٢ ص ٢٧٠) والسهيلي في الروض الأنف (ج ٢ ص ٢٢٤ هامش ط القاهرة سنة ١٩١٤) عن صفوان بالذات من أنه كان رجلا حصورا لا يأتى النساء .

فلذلك كله لا يبقى أدنى شك في براءة عائشة . وقد أجمع على ذلك المنطق المعقول والذكر الحكيم .

وقد كشف حديث الافك عن متانة عائشة وصلابتها أمام غمرة المهاجمين ، وذلك بموقفها موقف المعتمد الواثق بالنفس ، المعتقد أنه لا بد مبرا مما نسب اليه ، ما أقسى ما رأت وما يرى البريء المتهم والصادق المکذب من عناء نفسى !! كما كشف عن نبل أخلاقها اذ صفحت عن أساء اليها وشملتهم بعطفها . وكانت تكره أن يسب حسان عندها .

وفي ردنا على المستشرق « سفارى » ما يعد تكمله لحديث الافك هنا ، لا نعيده منعاً للتكرار . كما فيه مناقشة أخرى لما يثار حول زواج زينب بنت جحش ، وزواج ميمونة وجويرية وريحانة .

وصف النبى بأنه شاعرا أو ناثر مبدع

قال سفارى : ان محمدا أخذ ينظم القرآن ، وقال فرانك د . فوستر : « انه ناثر مبدع ، ابتكر النثر الفنى الأدبى » .

وكل ما كان من هذا القبيل مردود . لأننا نحن العارفين بالشعر منذ عهد محمد ﷺ الى الآن نعرف الشعر جيدا بضره وبصوره ، وليس

القرآن منه ، وان كان للقرآن تأثير في السامع اعظم من الشعر ، بله مثله . ولا شك أن الشعراء نالوا اعجاب الناس بأناشيدهم الرنانة ، وملكوا النفوس وتصرفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغر ، ولكن هل دفعوا الانسانية وهم يهيمنون في اودية الخيال ؟ . كلا . ولذلك لم يكن لهم في جمهورية انفلاطون نصيب ولا منصب ، بل انهم في العصور الوسطى كانوا موضع صغار وازدراء . ويعتبر « البارودي » في مصر أول شخصية ذات وزن سياسى واجتماعى تستعلن بقول الشعر في العصر الحديث ومثاله قليلون عبر التاريخ كابى فراس الحمدانى .

والشعراء .. من « هوميروس » الى « امرى القيس » فمن بعده من شعراء الأمم – لم يكن منهم ألا اثاره كامن العواطف ، وتنبيه النائم من الأفكار ، أو احداث لذة أو ألم في النفوس ، ولا ينتظر منهم ان يحلوا معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات مشكلاتها ، وسبب ذلك انهم في سيرتهم واعمالهم لا يقدمون للناس المثل التى تحتذى ، والأسوة التى يقتدى بهم فيها ، ولقد وصفهم القرآن الحكيم اصدق وصف عندما شكر سيرتهم بقوله : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمنون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٣٨) . وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء انهم لا يؤثرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشرى ، لأنهم يهيمنون في اودية الأفكار والعواطف بلا ايمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان – الايمان والعمل الصالح – لكان لشعرهم اثر بارز في المجتمع البشرى . وعلى كل فانهم ليسوا من الاصلاح فى شيء ، ولا الاصلاح من شأنهم . ولذلك لا يقدرّون على القيام بمهمة اصلاح العالم وقيادة الناس الى الرشاد والكمال والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الأمم فى غابرها وحاضرها « (٣٩) .

ولهذا فان اتهام المستشرقين وامثالهم من كفار الجاهليين قول معلوم

(٣٨) الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧ .

(٣٩) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ص ١٤ – ١٥ .

بطلانه أريد به الخط من قيمة محمد ﷺ وصرف الناس عن طلب الآيات
البيانات التي أنزلت عليه لدراستها .

وقد تناول المستشرق « ديزيريه بلانشيه » القرآن في كتابه « دراسات
في تاريخ الأديان » فقال : كفى هذا القرآن مجدا وجلالا أن الأربعة عشر
قرنا التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه ، بل لم يزل غضا كان
عهده بالحياة أمس .

ولا شك أن هذا هو بعض أسرار الإعجاز الالهي للقرآن . فلو كان
فعل محمد ﷺ لكان إبهاره سامعيه . ولكانت طراوته موقوتة بعصره وجيله
وبالجيل الذي بعده على الأكثر ثم لا يستساغ ، شأن كل عمل أدبي بشرى .
وقد حاول « جوستاف لوبون » الكشف عن سر اعجازه فقال : « ان
القرآن وما اشتق منه هو الى القطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب » .

ولا شك أن تطور الشعوب أمر متفق عليه ، وليس لبشر التكهن بالغيب
حتى يرسم للبشرية دستورا يناسب كل طور ، فلم يبق الا أن يكون القرآن
من مصدر غيبي من خواصه القدرة على معرفة غيب الشعوب في تطورها .
وأعظم من ادراك التطور أن يصوغ دستورا واحدا بنص واحد يجد كل جيل
في أضوائه هدايته ، وما يلتئم مع حاجته « صبغة الله ، ومن أحسن من
الله صبغة » (٤٠) .

وإمام اعجاز نصوص القرآن وقدرتها على أن تظل مرسله اشعاعات
الهدى والهامات الرشاد الى كل عصر وجيل وطبقة ومستوى علمي . . وقف
« جون كنجسلى بيرج » رئيس إدارة النشر لمجلس البعثات الأجنبية في
المؤتمر السنوي الخامس الذي أقامه معهد الشرق الأوسط بـ « واشنطن »
سنة ١٩٥١ داعيا الى استلهام القرآن وقال : واني أحب أن أتخير آيات من
القرآن تحرك لدى الإلهام الديني وأعلقها نصب عيني على جدار مكتبي (٤١) .

وقد قال « درمنجم » في كتابه « حياة محمد » يرد على القائلين

(٤٠) البقرة : ١٣٨ .

(٤١) بشرى زخارى ميخائيل : محمد رسول الله . . هكذا بشرت

الأنجيل ص ٣٥ .

بأن القرآن عمل أدبي لمحمد ﷺ : « ان كان نبي يجب أن يأتي ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتي به الأولياء ويسمى « كرامة » .

والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فان جماله الأدبي الفائق ، وقوته النورانية لا يزالان الى اليوم لغزا لم يحل ، وهما يضعان من يتلوه - ولو كان أقل الناس تقوى - فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدى « محمد » الانس والجن أن يأتيوا بمثله . وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بشئ آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الاله والهام الشياطين « (٤٢) .

● تأثير زكى مبارك بالمستشرقين :

لقد كان زكى مبارك مفتونا بالثقافة الغربية ومسالكها الفكرية ، وكان نهذا أثره فى اتجاهاته الفكرية .

وقد تناول بقلمه الأسلوب القرآنى واعجازه ، فزعم أن القرآن يعطينا صورة للنثر الجاهلى وان لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية الجاهلية . لأن القرآن نزل بلسان عربى ، فهو لا ينبو عن أذواق العرب وأفهامهم ، ولا يخرج عما ألفوا من طرائف التعبير والبيان .

وقد رد عليه مقاله الشيخ عبد المتعال الصعيدى قائلا : لو كان القرآن صورة مألوفة للعرب من نثرهم لما اضطربوا فى أمره حتى قالوا عنه مرة : انه شعر ، ومرة : انه سحر ، ومرة : انه كهانة . فمثل هذا الاضطراب لا يقع فى شئ مألوف لهم ، ولا فى شئ طرائفه معروفة عندهم ، بحيث لا يخرج عما ألفوه فى نثرهم .

ولو كان هذا الذى زعمه زكى مبارك شأن القرآن عندهم لما كان احدهم

(٤٢) المرجع السابق ص ٣٤ - ٣٥ .

أذا سمع آى القرآن اهتزت نفسه ، ولم ينكر اعجازه ، وربما اسلم لمجرد سماعه .

وقد كان نثر الجاهلية خطبا وأمثالا ، وحكما واسجاعا ، ومحادثات ومناظرات اما مرسلة أو مسجوعة ، وقد جاء القرآن بآياته البينات فريدة فى أسلوبها . ومع انفراد القرآن بأسلوبه لم يكن هناك مانع يمنع العرب من فهمه ، فقد نزل معجزة تناسب ما اشتهر به العرب من الأسلوب الفصيح ، ولكنه ليس من جنس هذا الأسلوب الى الحد الذى يعد به شاهدا من شواهد النثر الجاهلى .

والقرآن فى اعجازه للعرب أرباب البيان كالعصا فى يد موسى عندما صاغ الله منها المعجزة للسحرة بين يدى فرعون والملا من قومه . كل من المعجزتين يشاكل ما عند القوم فى صورة من الصور ويباين ما عند القوم فى الحقيقة والجوهر وباقى البناء والشكل .

وقد قال زكى مبارك ان معجزة القرآن بقوة روحه ومعناه لا بلفظه وأسلوبه ، ليخرج من ورطته التى تورط فيها . فانحرف به الطريق عن انهدى . اذ أن بلاغه القرآن حين نقول انها فى لفظه لا نعننى بها الزخرف ، وانما نعننى حسن مطابقة اللفظ لمقتضى الحال ، وحسن دلالاته على المعنى امراد . وقدما سئل أحد النقاد عن البلاغة اترجع الى اللفظ أم الى المعنى ؟ فقال : أى شقى المقص يكون هو المقص الذى يقطع ؟

ان القرآن معجز بالمبنى والمعنى وبسر من أسرار الله فيه لا ندره . ولا يخضع لما نسميه قواعد النثر الفنى أو الأدبى ، وان كانت هذه القواعد مما يحتويه القرآن الكريم .



« جب » ودعوى تأثير البيئة فى القرآن

قال : « هنرى جب H. A. Gibb » فى كتابه : « المذهب المحمدى » ان محمدا صنعته بيئته الخاصة بمركزها الثقافى والدينى والتجارى . وبحكم مركزها بين العالم وصلتها بأرقى شعوبه ، وبحكم ما اصاب اهل

عصره من انحلال وتفلت عن الدين اقتضى أن يصلحه فى ظلال الدين الذى ملك على مكة وحجاجها مشاعرهم ، فما فى القرآن ثمرة طبيعية لنشأة محمد فى مكة ، وقد نجح لأنه كان واحداً من المكين ، وما كانت حرب قريش للنبي الا خشية على حياة زعمائها الاقتصادية أن يزلزلها نظام محمد الجديد ، وأحيانا خشية على السلطة السياسية التى تبواها بعضهم أن تسلب من أيديهم . فالقرشيون يؤمنون بالله كما يؤمن ، وإن كان قد وحده توحيدا ثم يصلواهم ولا غيرهم اليه .

وزعم « هنرى جب » أن قريشا حاربت محمدا كذلك بسبب ما اخذه عن المسيحية وبخاصة السريانية من أخبار الجنة والنار ، وهم لا يؤمنون بالجزاء الأخرى أبدا .

ثم يضطرب « جب » فينكر أن تكون حرب العرب لمحمد صلى الله عليه وسلم سببها التمسك بالقديم كما هو مفهوم من الآية « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتهم به كافرين » (٤٣) . ف « جب » يريد أن نكذب القرآن ونكذب السنن الطبيعية المشاهدة من احتفاظ كل شعب بتقاليده ومن مقاومته بعنف كل ثورة عليها وإن كانت الثورة اصلاحية تماما . ثم نصدقه دون دليل على مزاعمه .

● تأثر طه حسين بالكاتب :

وهذه الفكرة المسمومة قد أثرت فى كتاب من تلامذتهم فى الغرب ، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أهده الى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٢٦ فقد جاء فى كتابه : « ان القرآن نزل فى مكة وهى ذات حضارة قائمة

(٤٣) الزخرف : ٢٢ - ٢٤ .

فصور الحياة الجاهلية تصويرا صحيحا ، ورد على فرق من العرب كانت تمثل اتجاهات دينية ومذهبية فى البلاد العربية نفسها . ولذلك فهو يعبر عن هذه الحياة العربية تعبيرا صادقا ، ولا يعبر عن غيرها ، ويرسم للعرب طريق الحياة الفضلى ، وما حديث القرآن عن مودة النصارى للنبي إلا لأن البيئة التى ظهر فيها لم تكن نصرانية ، ولو ظهر النبي فى الحيرة أو نجران للقى من نصاراها ما لقى من مشركى مكة ويهود المدينة « (٤٤) » .

● تعقيب :

وهذا انحراف عن الحق الذى جاء به القرآن وأثبتته التاريخ . أما القرآن فقد قال عن سبب المودة شيئا آخر غير الذى قاله طه حسين « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » . وإذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق « (٤٥) » فالسبب اذن هو أن النصارى العرب كانوا وراء قساوسة ورهبان متواضعين للحق ، ليسوا تجارا بالدين ، وانهم عرفوا صدق محمد ﷺ فى مبادئه التى نادى بها والتى سماها الله الاسلام . وأما التاريخ فقد قرر أن النبي كان بعيدا عن نصارى الحيرة وشمال غرب الجزيرة التابعين للروم ، وعن الروم انفسهم . ومع هذا فقد كانت حروب بين النبي وبينهم كان الدافع اليها من نصارى الروم ليس الدفاع عن المسيحية ، وانما هو الحرص على بقاء بلاد العرب مستعمرة للروم ، فطه حسين انما يكذب القرآن - من حيث لا يدري - بدعواه هذه .

وقد سيطرت نظرية آثار البيئة على كتاب القرن الماضى وأوائل هذا القرن تأثيرا كبيرا حتى أصبح يفسر بها ظواهر التاريخ ، فقال طه حسين : « ان تعلم اسماعيل لغة العرب من جرهم هو أسطورة . فهناك فرق كبير بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين ، وسبب الأسطورة - فيما يرى - هو رغبة مكة ، فى قيام وحدة سياسية وثنية مستقلة بين الجنوب

(٤٤) الشعر الجاهلى : ص ٢٨ .

(٤٥) المائدة : ٨٢ ، ٨٣ .

والشمال تحمى البيئة العربية من شر تدخل الروم والفرس والحبشة فى شئون العرب الدينية والاقتصادية «(٤٦) .

وهو بهذا يكذب هجرة ابراهيم باسما عيل الى مكة رضيعا حيث أسكنه بين رعاة لم يكن له خيار فى تعلم لغتهم وهم الجراهمة .



● الرد على « جب » وطه حسين :

ان طه حسين يمثل تلامذة الغرب والمستشرقين اكمل تمثيل ، فهو ربيب أفكارهم ومناهجهم حتى انهم لو سلكوا جحر ضب . خرب لسلكه معهم ، فنحن نراهم يهاجمون رجال الدين فى بلادهم فيهاجم هو - فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر - رجال الازهر هنا بقوة ، وينثنى الى رجال الكنيسة القبطية ناقدا فى رفق .

و « جب » يجنح الى سلسلة من الخيال الفكرى تؤدى الى نتيجة خاطئة هى أن القرآن بشرى المصدر ، فهو نضح البيئة العربية المكية ، وتعبير عن مطامحها الاصلاحية فهو بهذا ليس ديننا عالميا ولا وحيا الهيا ، ويقرر فى كتابه « المذهب المسمى » ان القرآن أخذ من الوثنية والمسيحية واليهودية مضمونه ، كما قال الجاهلون فى عهد محمد عليه الصلاة والسلام « وقالوا اساطير الاولين اكتتبها »(٤٧) ولكن فى عبارة جديدة .

وطه حسين يقول : القرآن رد على المسيحية واليهودية والوثنية بعد ان حكى مفاهيمها جميعا . وحكاية هذه المفاهيم انما هى انطباع بالبيئة ، واند انطباع آخر وثمره الانفعال بالانحراف الشديد فيها والغضب عليه ، والنتيجة التى يسلم اليها هذا القول هى أن القرآن بشرى حين يقال : «أخذ» من البيئة والثقافات التى فى طوائفها ، وحين يقال « رد » عنى ذلك الذى جاء على لسان المسيحية والوثنية .

(٤٦) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور

محمد البهى ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤٧) الفرقان : ٥ .

وقد عقد الدكتور محمد البهى فصلا عن بشرية القرآن وازن فيه بين « المذهب المحمدى » و « الشعر الجاهلى » وصل فيه الى النتيجة التى ذكرها (٤٨) ورد عليهما وقال : ان العرب لم يكونوا على علم واسع بهذه الدرجة التى يضمها اطار القرآن الكريم بمعلوماته المتنوعة الرائعة المبدعة بل كانوا كما قال القرآن : « كانوا من قبل لى ضلال مبين » (٤٩) ، ورسالته لم تكن موجهة لقومه خاصة حتى توصم بالطابع المحلى ، وانما كانت للاميين وغيرهم - العرب وسواهم - القارئین وغيرهم . لا يحدها زمان ولا مكان كما قال القرآن نفسه : « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » (٥٠) .

والنبي ليس نضح البيئة . بل هو مبعوث الله « هو الذى بعث » سبحانه وتعالى ، والنبي ليس فى مقاله انطباع رجل بالبيئة والتيارات الفكرية التى تولدها الحياة الاجتماعية بها « ان اتبع الا ما يوحى الى » (٥١) ، والمستشرقون الذين يؤمنون بأن الانجيل وحى نازل من السماء ، ويكفرون بأن القرآن وحى نازل من السماء ، يقولون بترجيح احد المتماثلين بلا مرجح . وهو ما لا يقبله المنطق .

* * *

● اضطراب « بودلى » :

فهو يصر على ان القرآن كتاب بشرى تحتاجه البيئة ، وكان موائما لها ، ولذا كان نجاحه فيها . ثم يقول : انه فتح الامصار وغزا العالم بخواص ذاتية فيه . ثم ينتكس ويقول : وقد رفضته فرنسا لعدم صلاحيته لها وكأنه عنصر غريب دخل الجسم فلفظه ، واليك بعض الاضطرابات بعبارة « بودلى » :

-
- (٤٨) راجع : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمال الغربى
ص ٢٠٧ - ٢١١ .
(٤٩) آل عمران : ١٦٤ .
(٥٠) الجمعة : ٢ ، ٣ .
(٥١) الانعام : ٥٠ .

قال « بودلى » فى انتشار الاسلام لذاتيته : « فما كان محمد يهمل أمر الله أبدا ، وما كان يسمح لمركزه أن يدير رأسه ، وسواء أقرأ الانسان لكتاب من مناصرى محمد ، أو لكتاب من أعدائه ، فانه ليجد أنهم جميعا قد اتفقوا على أن البساطة والوقار كانتا تعم حياته ، والبساطة المتناهية هى احدى قوى الاسلام الأساسية . وانها لاحدى أسباب انتشاره الملحوظ . »

ثم قال : « اكان فى مقدور رجل - ما لم يكن ملهما - ان يأتى الى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ، وهلا تنعكس سخرية المعادين للاسلام عليهم ؟ وكيف يخلف دجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته ؟ ان عدد معتنقى الاسلام ليزيد اليوم بمقدار ربع مليون فى كل عام . وهذا دون ضغط أو ارهاب لنشر رسالة الاسلام . »

ولم يكن لمحمد « بوليس » : وكان جنوده هم ناشرو الاسلام الأصليون ، وقد تركوا الاسلام ثابت الدعائم حيثما ذهبوا . وان هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان يحدث لو أنه كان هناك ارساليات عربية عظيمة تبشر بانقرآن كارساليات المسيحية الأولى . وما كان هناك دعاة عظام للاسلام بالمعنى المعروف ، فقد كان الناس الذين يتعاملون - وهذا الدين - يحبونه ، فكانوا يقبلونه ويدخلون فيه . »

ثم ينقض ما قاله فيقول :

« ومن الناحية الأخرى فان الاسلام لم يبق فى دولة نختلف عن مكان مولده كل الاختلاف ، فقد حكم المسلمون اسبانيا حكما رائعا خمسة قرون ، ولكن لما عاد الملوك المسيحيون وديوان التفتيش المقدس حبت عقيدة المسلمين وماتت . »

وزيادة على ذلك فما كانت أوروبا لتعتنق الاسلام لو أن « شارل مارتل » قد هزم فى « تور » ، فان هذا الدين يوائم أناسا غير معقدين ، وكان محمد غير معقد « (٥٢) » .

● بطلان مقال « بودلى » :

الدليل على بطلانه : أن الاسلام الآن لا يزال فى مصر والسودان وشمال افريقيا وتركيا وأفغانستان وباكستان واندونيسيا والفلبين وجاوة وسومطرا .. وهى اماكن تختلف كل الاختلاف عن الجزيرة العربية مولد الاسلام ، واما أن أوروبا تخلق كثير من بلادها عن الاسلام الآن شعوبها تجنح الى التعقيد ، فذلك غير صحيح . بدليل أن الاسلام لا يزال فى تركيا ، وقد كان يسود بلاد روسيا وكثيرا من المناطق الأوروبية بعد معركة « شارل مارتل » ، وبالرغم من محاكم التفتيش ، حتى ازداد التسلط الصليبي بأسانيه العلمية الجديدة بعد عصر النهضة . وكان اضطراب المسلمين الى ترك فرنسا والمناطق الشمالية بسبب شدة برودة الجو أبرز العوامل التى أدت الى بقاء أوروبا مسيحية استفادت من العلوم الاسلامية الطبيعية والكونية ، لأنها ضرورة لبقاء الجسد وتوفير سعادته . أما الروح فمستوى رفيع لم تنتهيا أوروبا لتوفيره لنفسها من مأدبة القرآن فى سر، دق الاسلام العظيم .

سر الصراع بين الاسلام والكفار

قال الأستاذ « مونتمرى وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبره فى كتابه « الاسلام والجماعة المتحدة » : ان المعركة بين محمد - عليه السلام - وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بين حركة تجديد وحركة تجديد اخرى ولكن فى طريقين مختلفين بل متعارضين .

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحضارة التجارية ، وكانت ثروة الأرباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية فى مكة وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية الى أخلاق السادة المنعمين فى الحاضرة . بينما اناس من عشائره وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ، ولا يشاركونهم فى نعيم الثروة ولا فى عزة السطوة ، فهم كسادتهم غير محافظين ، وغير مطمئنين الى ما هم فيه ، وأن كانوا يخافون التغيير المجهول ، ولا يسمون زمامهم للمصلحين ،

فهم على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير . فلم يكن السادة ولا العبيد اذن محافظين على القديم - كما زعموا لاقناع أنفسهم بمحاربة الدعوة المحمدية ، وفاء منهم لأبائهم ، وأجدادهم ، ورعاية منهم لأربابهم ومعبوداتهم ، بل كانوا جميعا يتحولون من سنن أولئك الآباء والأجداد فى معيشتهم وأخلاقهم . ويأخذون فى معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة ، وأملها الأكبر زيادة الثروة والسطوة ، وحقيقتها الواقعة هى حقيقة كل متعة حسية .

وهذه هى الحياة التى وصف القرآن أصحابها فقال : « أفرايت من اتخذ الله هواه » (٥٣) ، « وقالوا ما مى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون » (٥٤) .

« اما التغيير الذى جاءت به الدعوة المحمدية فقد افلح واستقر ، لأنه أعطى النفس الانسانية - كما أعطى الجماعة كلها - حياة افضل من حياتها ، وغاية أحق بالسعى اليها من غايتها (٥٥) هى الآخرة والوحدة الانسانية على قدم المساواة ، وعلى قاعدة عقيدة الوحدانية والايمان بالله والآخرة والكتاب .

● وجه الخطأ :

الكاظم فى هذا يخلط الحق بالباطل فما قاله عن رسول الله ﷺ حق وما قاله عن كفار قريش وانهم كانوا يصدد تغيير للحياة الاجتماعية وليس جمودا على ما عليه الآباء باطل ، لأن الله حكى عنهم قولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » (٥٦) وجعل القرآن ما قالوه آفة اجتماعية من شأنها تعويق التطور الاجتماعى وقرر أن مجرد الطبقات المنرفة آفة مصاحبة ومساندة لآفة الجمود فقال « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (٥٧) ، ولو كان لدى القرشيين رغبة فى التغيير الاجتماعى

(٥٣) الجاثية : ٢٣ . (٥٤) الجاثية : ٢٤ .

(٥٥) المرجع السابق ص ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٥٦) الزخرف : ٢٢ . (٥٧) الزخرف : ٢٣ .

حينئذ لكانت هذه الرغبة وحدها كفيلة بتقبل فتح باب الحوار فى المبادئ التى جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكان هناك جدل موضوعى . . ولكن القرآن يقول - فى رفضهم مبدأ التغيير من أساسه وبالكلية - « قال أو لو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا انا بما أرسلتم به كافرون » (٥٨) .

وفى مرة أخرى يقول القرآن عنهم « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٥٩) . ومرة أخرى ينفى عنهم العلم الذى هو أساس أى اتجاه للتغيير الاجتماعى ، ويذكر النقيض للعلم وهو الجمود على الجهل فيقول فى سورة لقمان : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير » (٦٠) .

ولكن المستشرقين دائما يحاولون من تحت ظلال راية الدفاع عن الحق والاسلام والرسول وأمانة البحث العلمى أن يعملوا على نقض المسلمات الاسلامية والقضايا القرآنية للتشكيك فى قيمتها لدى الدارسين اذا لم يصلوا بالقارىء الى حد تجنيده لحربها كفرها بها .

أما أن الكفار كانوا يعبدون « اله الهوى » فليس هذا دليل التجديد . بل الهوى هو الذى بعث كافة النبيين لحربه .

* * *

تصوير النبى بطلا ومصلحا عظيما

يحرص المستشرقون وتلامذتهم على تصوير النبى بطلا أو مصلحا عظيما . أو سياسيا بليغا أريبا أو عبقرى فذا ، هو وبعض أصحابه ، فمثلا «توماس كارليل» الانجليزى فى كتابه «الأبطال وعبادة البطولة» الذى ترجمه محمد السباعى يعده واحدا منهم فيمجده ثم يذكر « شكسبير » فيقول : ان المقارنة بين شكسبير ومحمد لتعتبر غير ذات موضوع لأن بطولة شكسبير

٥٩) البقرة : ١٧٠ .

٥٨) الزخرف : ٢٤ .

٦٠) لقمان : ٢٠ ، ٢١ .

فى أعلى عليين ، بينما يقول عن العرب وتأثير الرسول فيهم « قوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم « محمد » النبى العربى أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والعرفان ، وكثروا بعد قلة وعزوا بعد ذلة ، ولم يمتز قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم » . وسقوط مقال « كارليل » فى تفضيل شكسبير واضح ، فالناس يمتازون بآثارهم النافعة من بعدهم .

وانما يحرص المستشرقون على تصوير النبى بصورة البطل أو المصلح أو البليغ ، لأن كل هؤلاء تنتهى معهم كل أفكارهم ، وليسوا جديرين بالخلود والاستمسك بمذاهبهم كما يستمسك الناس برسالات الأنبياء - ذلك . . وان كل نور يومض فى أمة ولو كان ضئيلا ، وكل إثارة من صلاح أو كرم خلق أو صفاء سريره وطهاره قلبه فان - مما لا ريب فيه - مرده فى الأصل أنى رسالات الله . أى الى هداية النبیین عليهم السلام ، ولذا فمن الخسارة للانسانية ان يقف انسان ذو إثارة من علم يصرف الناس عن أى نبى من الأنبياء ، أو يحجب صفحات فضائله عن العالمين لأنه بذلك يطفىء سراجا منيرا يهدى البشرية الى أرشد أمرها .

ومن أجل هذه الحقيقة فان القرآن حرص على تجلية سير الأنبياء السابقين ، وروت لنا السنة ودعاة الاسلام الكثير من آثارهم عليهم الصلوات والتسليمات ، ومن الخطأ الضار بالبشرية محاولات حجب حقيقة السيرة النبوية الهادية عن البشرية . فضلا عن تشويهها .

حول السور المكية والمدنية

● نقض مطاعن فى القرآن الكريم :

وقد كتب الشيخ محمد عرفة وكيل كلية الشريعة بالازهر كتابا بهذا العنوان تعرض فيه لمفتريات المستشرقين فى هذا الباب ، وبخاصة « طه حسين » ربيب المستشرقين الناقل عنهم ، ومن الأمثلة التى أوردها

الشيخ نقلا عن طه حسين وأجاب عنها : قول طه حسين : أن السور
المكية فيها تقطيع للفكرة واقتضاب للمعاني .

وهذا مطعن فى تمام البيان القرآنى ، ربما لم يردده « طه حسين »
وقد نبه الى سم هذه الفكرة الشيخ محمد عرفة فرد عليها قائلا : ان سورة
الأنعام مكية . وهى (١٦٥ آية) انتظمها غرض واحد هو ابطال الشرك .
فكيف يقال : ان القرآن المكى فيه اقتضاب للمعاني وتقطيع للفكرة !!؟

وتناول الشيخ محمد حلاوة المرصى مطاعن هاشم العربى فى كتاب
« التذييل » وذلك فى الكتاب القيم « ثبات الايمان ونصرة القرآن » . وكان
هاشم العربى ذكر اعتراضات ادعى أنها مخالفة للقواعد العربية وقد بلغت
٢٨ شبهة اجاب عنها المفسرون السابقون فجمعها المنتصر المدعو هاشم
العربى ، وتعبه الشيخ محمد حلاوة بالرد فى كتابه (من ص ٢٧ الى
آخر الكتاب) . كما تعقبه الشيخ محمد حلاوة فى دعواه وجود تناقض
بين آيات القرآن (ص ١٢٩ وما بعدها) ، وفى دعواه أن فى القرآن
لغوا (ص ١٤٩ من ثبات الايمان) - أو أن فى القرآن أخطاء تاريخية
(ثبات الايمان ص ١٤٣) - كما رد على دعوى عدم اعجاز القرآن
(ص ١٥١) فمن أراد الرجوع الى هذه المباحث فليرجع اليها هناك ،
فليس هذا الكتاب خاصا بذلك ، وإنما أردنا التنبيه الى وسيلة من وسائل
الغمز فى صاحب السيرة العطرة محمد ﷺ ، وحسبنا من ذلك بعض
الأمثلة وسيأتى بعض هذا ان شاء الله .

* * *

● أبرز كتب المستشرقين والردود عليها :

أبرز كتب المستشرقين والمبشرين فى مهاجمة الاسلام :

١ - ميزان الحق : للدكتور « فاندر » المستشرق الأمريكى والدكتور
« سنكليرتسل » .

٢ - كتاب الهداية فى أربعة أجزاء وهو تفنيد للاسلام وطعن سافر
فى القرآن الكريم .

٣ - كتاب مقالة فى الاسلام للدكتور المستشرق « سال » .

٤ - تذييل مقال فى الاسلام : لمرتد أصبح قسيسا تسمى هاشم العربى وهو تذييل على مقالة « سال » .

٥ - مصادر الاسلام : للدكتور « سنكليرتسل » . وفيه اضافات الى الباطيل هاشم .

وجميعها تهاجم الاسلام والرسول .

وأهم الكتب التى ردت على المستشرقين :

١ - اظهر الحق : للشيخ خليل رحمة الله الهندى وهى مقالات القيت فى ندوة مع اقطاب المبشرين والمستشرقين واضطروا الى الانسحاب حتى يحتفظوا بأباطيلهم الباقية فلا يكشف الشيخ زيفها .

٢ - السيف الحميدى الصفيلى : وهو رد على كتاب الهداية السابق ذكره .

٣ - أدلة اليقين فى الرد على كتاب ميزان الحق : للشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

٤ - ثبات الايمان ونصرة القرآن فى الرد على هاشم العربى : للشيخ محمد حلاوة المرصى .

٥ - كتابنا هذا فى الرد على « م . سفارى » وغيره ممن تناولوا السيرة النبوية .

٧٥٦ - المستشرقون والاسلام لكل من زكريا هاشم زكريا وحسين الهراوى . ثم ردود كثيرة متفرقة فى كتب او مقالات .

تو به این فکر کن که اگر این اتفاق بیفتد چه می شود؟

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی

ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

و تو می خواهی ببین من می خواهم به تو بگویم که من به تو می گویم

الفصل الرابع

الرد على "سيدبو" ، "لامانس" وآخرين ..

- مزاعم سيديو : فى القصاص
• وشدته
- مفتريات لامانس •
- الرد على مستر كاش - والقتل
• السياسى
- شبهات كارليل - سر التكرير
• فى القرآن
- شبهات المستر فرانك فوستر :
أمية الرسول - وتعدد زوجات
الرسول - ومقابلة أهل الكتاب •
- محمد خاتم المرسلين - الرد
على المنكرين •
- خاتمة •

الرد على سيديو

● لماذا القصاص لا التسليم المسيحي ؟

تحدث « سيديو » عن الاسلام ونصيب الاخلاق فى تعاليمه ، فذكر دعوة النبى للأخلاق « وانك لعلى خلق عظيم » (١) ، « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (حديث) .

ثم قال : « بيد أنك لا تجد فى القرآن - ما فى الانجيل - من التسليم الذى يفيد كثيرا عند الشدائد ، فترى محمدا يأذن - بين كثير من التناقضات - فى مقابلة السيئة بالسيئة ، كأن الناس لم يكونوا مستعدين لهذا من قبل . و « محمد » حين يقول بمبدأ القصاص الذى رضى عنه اليهود - مع ذلك - يكون قد سائر احكام زمانه وقومه » .

● القصاص لا يتنافى مع الخلق :

يعنى سيديو بما فى الانجيل من التسليم قوله « من لطمك على خدك الايمن فأدر له الايسر » ونحن لا نسلم - « سيديو » قوله : « ان هذا يفيد عند الشدائد » . انه يفيد طبقة المستبدين المتسلطين ، وهذا هو ما جعل انشيوخين يصفون دين المسيحية بأنه مخدر للشعوب .. وهذا امر يضمن مؤقتا سكوت المظلوم الضعيف ، ولكنه عندما يجد الفرصة للثأر والانتقام اهتبلها ليثأر بطريق العنف المستعلن ، أو بطريق الاختلاس أو التآمر المتوارى . والنار المستعلنة يحذر الناس شرها فى استعلانها . أما اذا كانت متوارية تحت الرماد والناس عنها غافلون ، فقد تكون آثارها وخيمة ، تدمر كل شئ أتت عليه فى غفلة عن أمرها .

فالرغبة فى القصاص واقامة العدل فطرة ، ومطالبة الناس بما يخالف الفطرة - دون بديل قائم على الرغبة فى المخالفة . مطالبة بالمستحيل . ومكلف الايام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

وقد جاء القرآن بما يحفظ للمرء كرامته دون أن يجنى على العدالة .
 فشرع القصاص ولكنه ترك للنفس المتسامية - أو القدرة على التسامى -
 الباب مفتوحا لترتفع عن أخذ حقها فتعفو عن المصء ، ولم يجهل القرآن
 انفوارق الفردية بين الناس واختلاف الطبائع ، فجاء بشريعة تحمى العدل ،
 وتنمى الفضائل الخلقية ، وتعين على السمو الروحى ، « وان عاقبتهم
 فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٢) ،
 وذلك هو القانون العام ، ثم اعقبه بالمثل الأعلى فى خطابه للرسول
 « واصبر وما صبرك الا بالله » (٣) ، وهو ليس أمرا خاصا بالنبى ،
 ولكنه عليه السلام الأسوة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (٤) .

فليس هناك تناقض كما زعم سيديو فى نصوص القرآن وافعال
 الرسول . انما التناقض يكون فى الدعوة الى أمرين معا . اما هنا فالدعوة
 الى مبدأ واحد متكامل الأجزاء . وهو التسامى بدرجة الأولى عن
 الشراة فى الحصول على حق القصاص ، والتسامى بدرجة الثانية
 بالعفو وهو الأمثل :

(١) « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن
 والسن بالسن والجروح قصاص » (٥) .

(ب) « فمن تصدق به فهو كفارة له » (٥) .

وليس التصديق الزاما واجبارا ، وانما يأتى طوعا واختيارا . . هذا
 فضلا عن أن الرسول كان مثالا عاليا فى الحلم ، ولكنه لا يضع الندى موضع
 السيف ليفسد الحياة ، فالعفو والعقوبة كلاهما عمل استصلاحى فى أيدي
 الحكماء . . وقد جعلتهما شريعة الاسلام حقا فى يد المسلم ليفعل
 الأمثل منهما .

وأما أن محمدا فى تشريع الفصاص ساير أحكام زمانه وقومه فمغالطة
 فاحشة أراد بها سيديو الإيحاء بأن شريعة الاسلام امتصاص نظام قائم ،
 وبلورة له .

(٣) النحل : ١٢٧

(٥) المائدة : ٤٥

(٢) النحل : ١٢٦

(٤) الأحزاب : ٢١

وقد كرر هذا المعنى غيره من المستشرقين فى صورة أخرى فى اطار مدح وثناء فقد قال جونسون فى كتابه « الديانات الشرقية » :

« ان التجاوب الطبيعى بين نظرة محمد الواسعة الى الذات الالهية ، وبين الجو الفسيح الذى كان يغدو ويروح فيه . . هو التفسير الوحيد للهدوء ورباطة الجأش العجيبين اللذين استقبل بهما المشاهد الهائلة التى رآها . وليس بمستغرب أن تخرج أعظم قوة فى ذلك العصر من فلوات الجزيرة العربية التى كانت الأمم حولها فى مد وجزر . فقد كانت الصحراء على الدوام هى المكان الذى انبعثت فيه صيحات الأنبياء الذين جاءوا من عند الله ، وقد أفضى المسيح على الجزيرة العربية معنى رمزيا حين اوى الى البرية لما جاءه ربه الذى ليس كمثله شئ ، ولكن محمدا جعل هذا الرمز حقيقيا ، فقد كانت الجزيرة العربية نفسها هى رجل الساعة ، وكان نبي الاسلام كلمتها الجامعة ، اذ أفضت الصحراء بذات صدرها الى ابنها الفذ الذى تحلى بتقاليدها الرفيعة ، ودفعه واقع باطنى قاهر الى الخلوة فى ليلة طلعت فيها النجوم وهى تصغى الى حديثها دون أن ينبس ببنت شفة » (٦) .

فالجميع يحاولون رد شريعة الاسلام الى البيئة والجزيرة والدوافع الاجتماعية وغيرها ، وهذا منطق منكرى الأديان ومنطق المبشرين والمستشرقين الذين يريدون النيل من الاسلام خاصة بنزع ثوب قداسة الوحي عنه . وجعل القرآن بشرى المولد والطبيعة . وقد رددنا على هذا فى مكان آخر . ولكن الذى نريد دفعه الآن هو دعوى مسايرة القرآن لعصره ولرغبة اليهود . فلقد سائر القرآن الصالح العام فى عصره وغير عصره ، دون التفات الى رضا المجتمع والزمان . فلقد جاء قوم يطلبون من النبي ﷺ أن يحط عنهم بعض أحكام الشريعة كالزنا طلب اسقاطه قوم ، وقطع يد السارق طلب قوم اسقاطه عن فاطمة المخزومية ، والرجم طلب اليهود أن يستبدل به تحميم وجه الزانى والتشهير ، وقامت حروب الردة من أجل الحفاظ على الشريعة بكل مبادئها . فكيف يقال : ومع ذلك يكون محمد

(٦) محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل ص ٥١

قد سائر أحكام زمانه وقومه ؟ ! . هذا جهل فاضح بالتاريخ ، أو تجاهل
مزر بالحقيقة الجليلة .

وأما قول جونسون . فمقطوعة فنية من الخيال ، وفى عالم المنطق
استدلال شاعرى أو خطابى لا يصح دليلا للحقيقة . . فلو كان الموضوع
موضوع صحراء لكنت الصحراء الكبرى بأفريقيا أو صحراء كاليفورنيا
مصدرا للأنبياء ومرسلين . . ولو كان الأمر بلورة مبادئ وتقاليد رفيعة
للصحراء لكان الحكم فى رفعة هذه التقاليد الى الصحراء . بما فيها
من غارات وإباحية وهرب من المشكلات المعقدة بالخمور . . ولم يكن
بمحمد من هذه الصفات الصحراوية شيء .

* * *

● من هو لامانس ؟

هنرى لامانس قس يقطن لبنان . بلجيكي المولد فرنسى الجنسية . من أوائل علماء الجامعة اليسوعية ببيروت ، وقد درس اللاهوت فى انجلترا وتولى ادارة التبشير فى بيروت ، وله عدة مؤلفات فى تاريخ العرب والسيرة والاسلام . ووظيفته المعيشية تجعلنا نصم الأذان عن كلماته ، ولكننا نذكر بعض آرائه الشاذة لنعرف كيف يتجه أولئك المستشرقون .

۱ - نفى شجاعة النبى والعرب :

نفى الشجاعة عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام وعن العرب عامة . ولا شك انه تصدى لانكار ضوء الشمس وقديما قال الشاعر :

❖ لا ينكر الشمس الا من به رمد ❖

وأي شجاعة اعظم من ان يتحدى النبى كل القوى التى تحمى الوثنيات والأنظمة الاجتماعية الفاسدة فى العالم ؟ لقد كان يقود المعارك ويديرها ويتقدم الصفوف ، ويتحدى لما يتحدى له كل صناديد شجاع . وحسبنا قول على بن أبى طالب : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ » . فما يكون أحد «قرب الى العدو منه » .

« وقد ثبت فى موقعة حنين ثبات البطل الغلاب ، ولم يثنه أن رأى أكثر من معه يلوزون بالفرار من مباغته الأعداء المتربصين لهم فى ظلمات الليل بالمضايق والشعاب . نعم فى ذلك المأزق المبيد دعر المسلمون وتفرقوا . يطلبون النجاة . لكن النبى ثبت فى مكانه ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وهو يقول : « ايها الناس تعالوا الى . انا رسول الله . انا محمد ابن عبد الله » . لكن صيحته هذه كانت لا تسمع فى ضجة الفرار وجلبة الاضطراب . فأمر عمه العباس أن يستصرخهم فاجتمع اليه مائة ، استبسلوا وقاتلوا مع رسول الله حتى تم له النصر (۷) وموقفه يوم أحد اذ صاح قائلاً والهول من حوله والعدو يطلبه :

(۷) البطولة والأبطال لأحمد الحوفى ص ۳۲ ، ۳۳ ط . نهضة مصر .

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأما شجاعة العرب فحسبنا دليلا على أنها طبيعة فيهم هذه الفتوح الإسلامية التى خرت عروش الروم والفرس والحبش أمامها مستسلمة . وفى الجاهلية ما تنسى الفرس يوم ذى قار ، ولا نسى الفرس والروم معا أنهم أقاموا من دولتى غسان والحيرة العربيتين متاريس حين عجزوا عن لقاء العرب اذ آمنوا أنه لا يقل الحديد الا الحديد . ولكن « لمانس » أراد تحقير شأن العرب اغراء للكلاب بهم . أو كتعبير الانجيل : للخراف الضالة .

٢ - هل كان النبى أكلوا ؟

ووصف النبى بأنه أكل . وذلك خلاف الواقع ، لأمور :

أولها : أن النبى ﷺ ذم الذين يأكلون أكثر مما يكفيهم . ولامانس يريد أن يصور النبى فى صورة الدجالين الذين يقولون ما لا يفعلون . وكأنه يصور حاله الشخصية لا حال النبى . فان عائشة رضى الله عنها قد صح عنها أنها قالت : « كان يأتى الهلال تلو الهلال تلو الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين . ما يوقد فى بيت رسول الله نار » . وسئلت : ماذا كان عامة طعامه ﷺ هو وأهل بيته ؟ فقالت : الأسودان . . . التمر والماء . . ومن كان هذا شأنه فليس أكلوا . وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام وهو المتواتر نبأ صدقه : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » ، وانما ابتغى الكاتب بقالته هذه أن يشكك فيما جاء به النبى ، بشريعة الاسلام ، عن الجوع أو الاعتدال فى الطعام والشراب وفضيلة ذلك ، وليشكك فى الصيام الذى دعا اليه ، وعمل به فقد أثر عنه أنه كان كثير الصيام . فيصوم فوق رمضان ستا من شوال والثلاثة الأيام البيض من كل شهر (١٣ ، ١٤ ، ١٥ من الشهر العربى) وأيام الاثنين وكثيرا ما صام الجمعة ، وأخبرتنا عائشة أنه كان ربما أتى إليها ضحوة فسألها : هل عندك من طعام ؟ فان قالت له : لا ، قال : اذن نصوم . وقد أثر عنه : « جوعوا تصحوا » ، كما أثر عنه « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » . وقد أجمع المؤرخون

والمخالطون له عليه الصلاة والسلام على أنه كان المثال الكامل لما يدعو اليه :
والعجب أن المستشرق « بنيه سنغله » يرى نقيض قول لامانس ، فيزعم
أن النبي مات نتيجة كثرة صيامه وجوعه ، لا التخمة ولا الالتهاب
انرثوى الذى زعمه المستشرق كليمان هيار .

٣ - هل كان النبي يكره الوحدة ؟

وزعم أنه عليه الصلاة والسلام كان يكره الوحدة التى هى قوام
رهبنته المفضلة .

ويتناسى « لامانس » المتفق عليه من أنه عليه الصلاة والسلام كان فى
مكتمل شبابه قبل البعثة يخلو الى نفسه فى غار حراء وحيدا . . ويتجاهل
ما روى من اعتكافه فى المسجد كثيرا ، وأن طبيعة دينه الذى يدعو الى
التفكير فى خلق السموات والأرض ، ومصالح المسلمين تفرض لتحقيقها
توفير وقت يخلو فيه المرء الى نفسه ، وأنه من أجل الاستجمام الروحى
والعقلى والوجدانى الذى لا يتم مع ضجيج المخالطة نزلت الآية التى
توفر له ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى
طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعتم فانتشروا
ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم ، والله
لا يستحى من الحق » (٨) والذى يكره الوحدة لا تؤذيه هذه المخالطات
المستمرة . ومن أجل توفير وقت يخلو فيه الى نفسه ومن أجل تخفيف
زحمة اللقاءات به ربما كان نزول الآية « اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين
يدى نجواكم صدقة » (٩) لتكبح جماح سيل الزوار والخطاء .

٤ - هل كان النبي نؤوما ؟

ويصف لامانس النبي بأنه كان نؤوما . ليوهم أنه كان على غير
ما نزل الله عليه «ومن الليل فتجهد به نافلة لك» (١٠) ، « يا أيها المزمل .
قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن

(٨) الأحزاب : ٥٣ (٩) المجادلة : ١٢ (١٠) الاسراء : ٧٩

ترنيلا» (١١) . ومن المعلوم أنه كان يقوم الليل ويقوم أصحابه معه بقيامه حتى أحس أنهم يفعلون فعله هذا فصرفهم وقال : « خشيت أن يفرض عليكم ذلك » . . . وقد سجل القرآن هذا النمط من العبادة الليلية فقال : « أن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » (١٢) ، وتلقى عصره هذا الخبر بالتسليم فلم ينكره أحد . . والدعوات الشابة تكون تحت المجهر دائما . فأى بيان كاذب يبرز فى صورة شنعاء فى صفوف المعجبين والحاقدين على سواء .

بل ان هذه الصفة تتنافى مع طبيعة هذا الدين الذى يجعل من قيام الليل شريعة لازمة لبناء الداعى الى الله والسالك الجاد على جادة الجنة . . . وهى أبرز سمات التقى « ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون » (١٣) ، « انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » (١٤) . فكيف يكون هذا طابع المؤمن التقى من أهل الجنة ولا يكون النبى الرائد كذلك ؟ لقد وصفت عائشة وهى أقرب الخطاء منه حياته عليه الصلاة والسلام وأخلاقه فقالت فيما يرويه البخارى : « كان خلقه القرآن » ولا يمكن أن ندع صفة القرآن للنبى لمفتريات خصم ليس له على زوره بينة . بل ان منطق الحياة يصفع زوره ، اذ لا يتصور معه رجل كرسول الله يحيا فى محيط خصومات عاتية من الفرس والروم ومشركى العرب ثم يدع دفعة سفينته بين الموج اللجى لينام . وهل ينام انسان فى الغابة ، أو فى بحر يقصف بشراع سفينته الرياح ؟ . . ان عوام الناس يدركون من بدهيات الحياة أن الجائع والخائف لا ينامان . وكان رسول الله ﷺ فى معظم أحواله جائعا . وفى مقام الخوف الذى أنغذه من هوله المذهل إيمانه وشجاعته . . ان الرجل المشغول بجسام الأمور يبيت وهذه

الأمور تلاحقه فى نومه . . فكيف الأمر ورسول الله يؤسس مجتمعا جديدا لبناء شامخ يضم البشرية كلها ؟ ان صح لنا ان نحلل تحليلا نفسيا الرجل من كلماته فاننا نقول : ان رسول الله ﷺ كان مشغولا بدعوته الى الحد الذى لا يهنا له معه نوم . بل تلاحقه متاعب رسالته فى نومه . وذلك هو ما توحى به عبارته المعروفة « تنام عيني ولا ينام قلبي » .

وان اردنا تحليله النفسى من تصرفاته لقلنا : ان الرجل النؤوم يغط فى نومه لا يأبه بشىء حوله . اما غيره فيهب من نومه لأقل نبأ (١٥) وينهض فى نشاط من فراشه ، وقد ثبت انه كان اذا سمع صرخ بالمدينة ، وهب القوم لاغاثة الصرخ . وجدوا رسول الله قد سبقهم لانتقاده ، وآب بعد ان أدركه فردهم من الطريق . لقد نهض لأول همسة صياح نشيطا . فادركه على فرس أبى طليحة ثم رجع . . ولما يصل القوم مكان الصرخ (١٦) . وما لهذا دلالة نفسية الا أن الرسول بلغه المصريين كان « نومه خفيفا » وقليل . . والا فمتى كان النبى يصرف أمور « دين ودولة » ولما تستكمل الدولة قوانينها ولا الدين شرائعه . . اذا كان نؤوما . . ؟

* * *

٥ - انتقاص اعلام الاسلام وامهات المؤمنين :

وينتقص لامانس اعلام الاسلام كالخلفاء الراشدين وامهات المؤمنين ليرى القارئ فشل الاسلام فى التربية . بينما يذكر المرتدين والمنافقين فى صورة أحرار عمالقة وطنيين حتى انه ليبدو « ناصبيا » حين ينتصر لبنى أمية ضد الشيعة الى الحد الذى أثار عليه المسيو « كازانوف » وحمله على التطرف المناقض فى كتابه « محمد وانهاء العالم » الذى ناصر فيه الشيعة وهاجم الأمويين ، وكلاهما منحرف فى تعصبه . وسبق بيان الحق فى هذا عند تحدثنا عن تزوير الحقائق التاريخية .

* * *

(١٥) الصوت الخفى . أو صوت الكلاب .
(١٦) رواه أنس : المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ٢١٣ - ٢١٤ .

٦ - مهاجمة التوحيد فى القرآن :

ويهاجم لامانس التوحيد فى القرآن الذى يجحد التثليث فيقول :
« ولا تقولوا ثلاثة » (١٧) والقرآن فى دعوته الى التوحيد منطقى ، قال
الله سبحانه « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (١٨) . ثم قطع الحجة
وشبهتها على المتشككين فى الوحدانية فقال : « أم اتخذوا من دونه آلهة ،
قل هاتوا برهانكم » (١٩) .

ولماذا يكون مع الله ثان وثالث . التكون هذه الآلهة مخصصة
للانسان من خطيئته كما يقول النصارى والوثنيون من قبلهم فى العالم ؟
ولماذا لا يكون هنالك الدين الذى يرشد الناس الى الصواب ويقيم النظم
والتعاليم التى يصاب بها المرء عن الخطيئة ، أو يتطهر منها ان التاث
بها ؟ . ان هذا هو ما جاء به محمد ﷺ وكما قال أحد النصارى الذين
أسلموا :

« ولما كان كل كائن يستطيع الوصول الى الكمال اذا التزم السير
على نهج خاص . كذلك الانسان يستطيع فى هذه الحياة أن يبلغ غاية
الكمال الروحانى كما بلغ غاية الكمال الجسمانى اذا سار على هذا النهج .
وما هذا النهج سوى الدين ، وانى اعتقد أن العالم الآن قد أصبح أرجح
رأيا من أن يسلم بأن نظرية الاله الغضبان ، واسترضاءه بتقديم القرابين
تصلح أساسا للدين . وسببا لوجوده . لقد شبع الناس من كباش الفداء
هذه . وانما الرأى الذى تقبله العقول أن يكون ارتقاء الانسان من
الحيوانية الى الروحانية هو الغرض الوحيد الذى ترمى اليه الأديان .
والمبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء .

« ولا ريب أن بلوغ هذه الغاية السامية لا يمكن أن يتم بسحر ساحر ،
بل لا بد من المجاهدة والمكابدة تحت ارشاد القدوة الكامل الذى يحيط
بدقائق النفس الانسانية . وما يحيط بها الا رسول من الله حقا ، ولست
أستطيع أن أفهم غرضا آخر يبعث الله الرسل من أجله . . . ومحمد معلم
الانسانية الكامل جاء بما يرفع الانسانية من درك الحيوانية الى مرتبة

(١٨) الانبياء : ٢٢

(١٧) النساء : ١٧١

(١٩) الانبياء : ٢٤

الروحانية ، وأرشدتهم الى الوسائل المؤدية الى اعلاء الميول النفسية الأساسية كالغضب والشهوة وما إليها ، الى الأخلاق الربانية . الحق أن محمدا ﷺ يعالج هذه المسألة من كافة وجوها ، ويعالج كافة الميول النفسية سواء منها ما كان محمودا ، وما كان مذموما . ويرشدنا الى الخير لنفعله ، وينهانا عن القبيح لتجنبه . الأمر الذى لا مثيل له فى أى دين من الأديان (٢٠) .

« لا يقف بنا محمد ﷺ عند هذا الحد بل يضع أمامنا النموذج الذى يراد أن نطبع أنفسنا على غرارهِ . ولقد أتى على الانسان حين من الدهر كان يعتقد أن القول بأن الله « خلق آدم على صورته » أشبه باللغز المعمى ، ولكن النبى ﷺ وضح هذه العبارة حين أمر أمته أن يتخلقوا بأخلاق الله ، وبذلك لخص الغرض الأكبر من هذه الحياة الدنيا . فالانسان قد خلق على صورة الله من حيث الروح ، وبقي عليه أن يأخذ من أوصافه تعالى ما يناسبه . وهذا يتطلب معرفة الله تعالى بالقدر الذى يستطيع العقل المحدود أن يدركه من غير المحدود . والقرآن يصرح بأن الله تعالى « لا تدركه الأبصار » ، ولكنه يذكر بعض الصفات الالهية التى يمكن أن يدركها العقل البشرى والتى تصلح أن تكون لنا مثالا نحتذيه فنطبع أخلاقنا على غرارهِ ، فيحدثنا عن تسعة وتسعين اسما فقط من الأسماء الالهية ... تتضمن بعض الأوصاف التى يستطيع المتخلق بها أن يكون ربانيا .

« ومن ذلك يتبين أن النبى ﷺ قد عرف الخلق بالحق على قدر ما تطيقه عقولهم ، وهذه المعرفة قوامها الاستدلال بآيات الكون ، وإدراك الصفات الجميلة التى يمكن أن يتصف بها البشر . وقد كان اله اليهود الها قاسيا لا يحب العفو ، ولا يعرف الشفقة فى تنفيذ أحكامه ، ولا تأخذه رافة بأعداء شعبه . ولم تكن آلهة الأمم الأخرى أقل من اله اليهود قسوة ، فقد كان دخان القرايين على النار ، ودماء البهائم على المذابح تملأ

(٢٠) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٢٩ - ١٣٠ .

خياشيمهم فتتلمظ لها شفاههم ، وتقر بها عيونهم ، وكان جميع الآلهة فى الشرق والغرب من هذا الطراز .

« ولا ريب أن عيسى عليه السلام جاء ليخفف من حدة القسوة التى كان الناس ينسبوننها الى مقام الألوهية ، فكان يسمى الله أباه ، ليشعرهم بأن العلاقة بين الله وعباده تشبه علاقة الوالد بولده ، ولكن هذه الفكرة الجميلة أفسدها رجال الكنيسة ، فجعلوا الأب الودود ابا غاضبا حانقا لا يعفو عمن أساء اليه ، ولا يفرق فى شئ عن اله اليهود الذى لا يرحم ولا يلين . وأضفى النصراني على « الأب » فى السماء صفات المألوهات الوثنية ، فشبوه به « زيوس » الذى كان يرسل أبناءه لتسفك دماؤهم تكفيرا عن خطايا غيرهم .

« هذه الفكرة لم تشوه جمال الرسالة التى جاء بها عيسى فحسب ، بل أعطت صورة شائنة عن الأبوة . أب لا يعفو عمن أساء اليه ، ولكن يقتل أفضل أبنائه ليخلص غيره من أبنائه الأشرار .

« أما محمد ﷺ فيعطينا صورة عن الألوهية تفوق كل ما تقدمها جلالاته وجمالاته . قاله محمد هو الله « رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » (٢١) . وفى هذه الصفات الأربع تتلخص سائر الصفات المذكورة فى القرآن » (٢٢) .

● الغرض من التوحيد :

« يقرر محمد ﷺ التوحيد بقصد اصلاح الناس وتهذيب نفوسهم . فالانسان هو خليفة الله فى أرضه ، ونائبه الأعظم لتحقيق الغاية العظمى من الوجود ، ولما كانت هذه الغاية لا تتحقق الا على نهج خاص هو الذى تدل عليه الأسماء والصفات الالهية وجب أن تكون أفعال الانسان وصفاته على مثال الصفات الالهية حتى تتحقق الغاية المنشودة على الوجه

(٢١) الفاتحة : ٢ - ٤ .

(٢٢) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٣٦ - ١٣٧ .

الأكمل . وبهذا المعنى يجب أن نموت ونحيا على التوحيد . وهذا هو المراد بصيغة الله المذكورة في القرآن . فيجب أن نستعمل عقولنا في تدبير عالمنا الأصغر - وهو الجسم البشري - كما يدبر الله (العقل الأعظم) (٢٣) العالم الأكبر ، إذ نحن متعاونون مع المدبر الأعظم بوسائلنا المتواضعة ، وبناء عليه يجب أن نسير معه .

وبذلك يضاعف النبي الكريم من اهتمامنا بالدين . فليس القصد من الدين هو حسن المال بعد الموت أو الدخول في جنة الفردوس . بل القصد منه هو أن نعمل في كل لحظة من لحظات حياتنا على تحقيق الغاية الالهية . التي هي في الحقيقة غايتنا . وهذه النظرة الجديدة الى الدين غيرت معنى العبادة تغييرا كليا . فلم تصبح العبادة مقصورة على انشاد الترانيم والصلوات . إذ أن هذه وسيلة الى غاية . بل صارت تشمل العمل على اخراج المواهب والقوى الكامنة في الانسان وفي الوجود من حيز القوة الى حيز الفعل . وقد تجلى هذا المعنى في اول ما امرنا الله به في قوله « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٢٤) .



٧ - سر الاعجاب بمحمد :

قال لامانس في كتابه « مهد الاسلام » : « كان محمد رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوي الذي كان يرى في شخص محمد النبي العربي - كما يدعو القرآن - وفي هذا التفاعل ، أو في هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته نجد أولا وقبل كل شيء السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه » .

(٢٣) كلمة العقل الأعظم عبارة المستشرق غير سائغة شرعا .
(٢٤) أندادا : شركاء - والمفرد ند - والآية من سورة البقرة :

ما أشفه هذا الرأي . لقد كانت الجزيرة العربية تعج بآلاف مثل
النبي يمثلون شخصية العربي ويحملون سماته فلماذا لم يكن لكل هؤلاء
من تقديس العربي ما كان لمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ وأى مطابقة تامة
هذه التى يزعمها لامانس بين النبي وبيئته ، لقد كان على النقيض فى
كثير من الأحيان مع البيئة فهو لا يسجد للأصنامها ولا يشرب الخمر ولا يفخر
بمال ولا حسب ، وقد استهجن « ستوك هرفونجه » أسلوب التهجم الصارخ
على الحقيقة فقال فيما يرويه الأستاذ زكريا هاشم : ان سيرة « محمد »
الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت
لأية نظرية أو رأى سابق . هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا
أن يضعوها نصب أعينهم فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم
من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلوا الى نتائج - ولا شك - خاطئة ،
فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار ، وليس
هذا بالأمر الهين . ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا امر -
لا ريب - مستحيل .

على أن دراسة المبتدعات التى دخلت عن هذا الطريق فى تاريخ
النبي قد أتاح لنا أن نكشف عن أنها كانت أحيانا وليدة كراهية شديدة
للاسلام (كما هو الشأن فى كل ما كتب القسيس لامانس أو القس
زويمر) . اذ يصعب التوفيق بينها وبين العلم . ولا تليق بعصرنا هذا .
كما أنها على العموم . مع ما فيها من احاطة - نظرية بحتة - تسجل على
مؤلفيها جهلا عجيبا بعادات العرب . وانه ليكفى فى اظهار زيفها أن
نقارن بعضها ببعض ، لأنها على تناقض ، بحيث ينسخ بعضها بعضا .
وأخيرا فان غلوها فى الخيال . فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية
ليظهر بأجلى بيان صدق تلك الآثار الماخوذ بها فى العالم الاسلامى .

٨ - الغرض التجارى فى غزوتى بدر :

قال الأب لامانس : « لقد كانت غزوة بدر الاولى والثانية أقرب الى
الحملات التجارية منهما الى الحرب اذ كان المسلمون يحملون معهم

تجارتهم للعمل فيها بسوق بدر التجارى قبل المعركة وفى انتظار اشتعال أوارها » .

وقد أجابت زاهية قدورة قائلة (٢٥) : ألم يدر « لامانس » انه من العبث فصل الحياة الاقتصادية عن الحياة السياسية ؟ - ذلك اذا صح ادعاؤه - كما ان اصطحاب التجارة والأمتعة الى الحرب حينذاك كان ضرورة لاتقاء العوز فى حالة دوام القتال حينما يكونون بعيدين عن حاجيات الحياة ، ثم لاكتساب الفرص فى البيع والشراء بعد توطيد الأمر . اذ يكون من الوعى الصحيح والنشاط الكبير ان يفكر المرء فى الأمرين معا . ما دامت المسافة بعيدة والنقل شاقا . فهذا اذن ليس معناه ان الغرض الأول فى تلك الغزوات التجارة فحسب ، وليس فى هذا التعليل ما يوجب تغيير وصف الغزوتين من أنهما حربان للقضاء على الشرك الى « حرب من أجل المال » .

والواقع التاريخى ينكر ما قاله لامانس فضلا عما أجابت به السيدة زاهية . فإين تكون الحملة التجارية فى غزوة بدر الكبرى . وقد كان خروج النبى من المدينة فى أصحابه لثمان خلون من شهر رمضان سنة ٢ هـ . وكان جنوده ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يعتقب كل اثنان بعيرا . وأحيانا كل ثلاثة أو أربعة يعتقبون بعيرا ، اذ كان عدة ما معهم سبعين بعيرا وثلاثة أفراس . ولم تلبث الحرب ان نشبت بعد أيام .

أما بدر الآخرة فلم يكن بها معركة . وانما كان أبو سفيان قد أئذر المسلمين يوم أحد بالحرب فى بدر العام القادم . . فحمل المسلمون الى سوق بدر تجارتهم وهم مستعدون لحماية أموالهم لو أن أبا سفيان أنفذ وعيده ، فالرحلة للتجارة ولكنها تجارة قوم محاربين يترصد العدو بهم الدوائر ، وحين جاء أبو سفيان على رأس ألفى مقاتل أو يزيدون ووصلوا « مجنة » من ناحية الظهران قال أبو سفيان لقومه : « يامعشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب . . وان عامكم هذا جذب . . وانى راجع فأرجعوا » ، ورجع الناس . وفرغ الرسول وقومه من تجارتهم بعد ثمانية

(٢٥) عائشة أم المؤمنين ص ١٧ .

أيام من مقدمهم في شعبان سنة ٤هـ، فرجعوا الى المدينة غانمين سالمين (٢٦)
دون اشتباك ولا معركة .

* * *

٩ - اتهام عائشة بالتآمر لاستخلاف أبيها :

زعم لامانس ان عائشة كانت تناصر ما سماه « الحكومة الثلاثية »
بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة اذ اتفقوا على تولى الخلافة بالترتيب
السابق . وأنها كانت تهىء الجو لنجاح ذلك الاتفاق فى منزل الرسول .
وكان اتفاق الثلاثة فى عهد النبى ، وقد عملوا لذلك : ففسخ أبو بكر خطبة
عائشة لجبير بن مطعم ليزوجها الرسول بالرغم من امتناعها واشمئزازها
لتكون أكبر معين له على تحقيق اطماعه ، وزعم أن عائشة وحفصة بالرغم
مما بينهما من تباغض لم يختلفا فى أداء ما يجب لتحقيق هذا المطمع .
مما أدى الى وقوف معظم زوجات النبى ضد حزب عائشة وحفصة وقد
كان «محمد» عاطفيا ، ولا سيما بعد أن كبر ورق عوده فكان لعائشة
سلطان كبير عليه .

وقد أجابت زاهية قدورة عن هذه الشبهات بما خلاصته (٢٧) :

١ - فسخ أبى بكر خطبة جبير ليس كما قال « لامانس » .. ولكن
أم مطعم أرادت أن تستوثق من أن أبى بكر لن يدخل ابنها فى الاسلام .
فلما لم تجد من أبى بكر رضاه عن استمرار ابنها على دينه رغبت هى
وزوجها فى فسخ هذه الخطبة . حقا كان للأبى بكر رغبة فى أن يشرف
بمصاهرته . ولكن هكذا سار الأمر طبيعيا .. تماما كما حدث فى زواج
النبى بحفصة اذ لم تجد من يتزوجها . رفض أبو بكر هذا ، ورفضها
عثمان فقال النبى لعمر حين شكا اليه رفض عثمان : « حفصة بنزوجها خير
من عثمان ، وعثمان يتزوج خيرا من حفصة » ثم خطبها لنفسه .

(٢٦) فقه السيرة ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وحياة محمد لهيكل ص ٣٠٤ -
٣٠٥ ، وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢٧) عائشة أم المؤمنين - الفصل الثالث ص ١٤٣ وما بعدها .

٢ - أما أن عائشة كانت تشتمز من هذا فالواقع ينكره . لقد كانت تتعلق بالنبي في طفولتها لأنه كان يوصي بها خيرا . وكانت تدرك عظمته ورجولته وشرف الزواج به فضلا عما اشتهرت به من الحب العميق له والغيرة عليه غيرة تحدث بذكرها الركبان .

٣ - ولقد كان زواجها بالنبي صغيرة ولا يسمح سنها بالقدرة على حبك المؤامرات التي هي من عمل أصحاب الانياب الزرقاء .

٤ - وما زعمه « لامانس » من أن مهمة عائشة كانت تحبيب أبي بكر للرسول ، وأنها في حبها لزوجها إنما أرادت تحقيق غايات أبيها . وآخر تلك المجهودات امامة أبي بكر للمصلين فمردود :

(١) لأن حب النبي لأبي بكر كان معروفا قبل الزواج ، فقد اصطفاه خليلا ورفيقا في هجرته حتى نزل بذلك القرآن « ثانی اثنين اذ هما فی الغار اذ یقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » (٢٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت متخذا من امتی خليلا لاتخذت ابا بكر . ولكن اخي وصاحبي » وهذه الأخوة كانت معروفة قبل الزواج حتى ان خولة بنت حكيم حين ذهبت تخطب عائشة من أم رومان ، قالت : كيف والنبي اخو أبيها أبي بكر ؟ !

(ب) روى عن عائشة أنها لم تكن ترغب في امامة أبي بكر عكس ما زعم لامانس ، فقد روى احمد في مسنده (ج ٦ ص ٢٢٤) والبخاري في صحيحه (١/ ١٧٥ ، ١٧٦) أن رسول الله ﷺ قال : « مروا ابا بكر فليصل بالناس » . فقالت عائشة : ان ابا بكر رجل رقيق الصوت لا يستطيع الصلاة . فكرر الرسول امره ثلاث مرات . وفي رواية أخرى : ان عائشة اقترحت اسم عمر وطلبت من حفصة ان تقترح هي أيضا عمر . ففعلت حفصة استجابة لقول عائشة التي لم تقل الا حقا معروفا . فقال الرسول : « لأنتن صواحب يوسف » ويروى ابن حنبل أن النبي ﷺ كان قد أصدر امره الى عبد الله بن زمعة ليلبغه ابا بكر فلما لم يجد عبد الله ابا بكر دعا عمر

(٢٨) التوبة : ٤٠ .

الى الصلاة ، وكان جهير الصوت ، فسمعه الرسول وعرفه ، وعندئذ طلب النبي من عائشة أن تأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فأجابته « يارسول الله ان أبا بكر رجل رقيق . لا يملك دمه . وانه اذا قرأ القرآن بكى » وأخيرا صلى أبو بكر بالناس . فأين أثر عائشة وسيطرتها على الرسول ؟

« وهذه الروايات تتفق فى معناها . ويتضح منها انه لا صحة لادعاء لامانس ، فلو أنها كانت تعمل لامامته الصلاة لما طلبت أن يصلى غيره بالناس . ولو أنها كانت متفقة مع أبيها - كما يقول - لكانت هى البائدة فى ذكر اسم أبى بكر . وقد عزيت امامة أبى بكر الى أنها ترمز الى استخلاف النبي له . فكيف اذن يوفق بين قوله : ان عائشة تعمل على تولية أبيها خلافة الرسول فى امامة المسلمين ، وبين الواقع ، انها ارادت أن تحول دون ذلك . . وقد قالت فى هذا : « والله ما بى الا كراهية أن يتشام الناس بأول من يقوم فى مقام رسول الله ﷺ » . فأين اذن المؤامرة المدبرة من الاتفاق الثلاثى وعائشة ؟ واين اذن خضوع الرسول واستسلامه لرغبات عائشة ؟ وهو الذى كان على وشك طلاقها - مع سائر زوجاته - لطلبهن زيادة النفقة ، وهو طلب عادل فى حقيقته ، غير أن الرسول رأى أنه يتنافى مع رسالته .

(ج) ولم يطل مرض الرسول الا خمسة عشر يوما فى بيت عائشة ، والناس تتلف لسماع أخباره بين زائر وسائل ، ولا يعقل أن تستطيع عائشة بهذا الزمن القصير أن تدبر المؤامرة ، بالاتفاق مع أبيها - لدعم مركزه كما قال (Huatt) ولا سيما أن بيت عائشة لم يكن الا غرفة واحدة فيها المريض . وفيها الزوار أو الزوجات . فلم يكن الوقت أو المكان مناسباً للنشاط الذى زعمه المستشرقون .

والثابت أن عائشة لم تتدخل فى السياسة فى عهد النبي ولا أبيها ولا عمر ولا بدء عهد عثمان . فلما اضطربت الأمور وشكا الناس الى أهمهم عائشة تدخلت فى الأمر . جاء أهل الكوفة يشكون الوليد بن عقبة الذى تولى أمرهم بعد عبد الله بن مسعود . فالفرق بين الشخصيتين وحده كان كافيا للاحاساس بالفرق المثير للرعية .

واختصم أهل البصرة مع عاملهم . وأهل مصر مع أميرهم – عبد الله ابن أبي سرح – فلما كثرت الشكوى حاول الصحابة نصيح عثمان ، ومنهم عائشة يسألونه أن ينصف الناس من عماله وكان اشتغالها بالسياسة اجتهدا منها خالفتها فيه أم المؤمنين « أم سلمة » حين خرجت الى البصرة مع طلحة والزبير وقالت : « يا عائشة ، ان عماد الدين لا يقام بالنساء » وان كانت – فيما يرويه الشعبي عن ابن أبي الحديد – تفضل عليا للخلافة عن طلحة والزبير . وهى رواية مطعون فيها . وقد بررت عائشة عملها بقولها : انما اخرج للاصلاح بين الناس وارجو فيه الاجر ان شاء الله . وقرأت قوله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس » (٢٩) .

فهى داعية الى حق تراه . ولما حدثت واقعة الجمل التى راح ضحيتها نحو عشرة آلاف مقاتل من الفريقين ندمت حتى قالت للقعقاع ابن عمرو : « والله لوددت انى مت قبل هذا اليوم بعشر سنين » . وكانت اذا قرأت الآية « وقرن فى بيوتكن » (٣٠) بكى حتى تبل خمارها . وكانت كلما ذكر يوم الجمل تبكى حتى كان يظن من رآها انها لا تسكت ، وقبل وفاتها قالت : انى قد احدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فادفنونى مع ازواج النبى ، تعنى خروجها مخالفة الآية « وقرن فى بيوتكن » .

ولم يكن وقوفها ضد على لما ذكره المستشرقون وأمثالهم نذير تستروا بالاسلام قديما من قوله للنبى فى حادثة الافك : النساء غيرها كثير . فكان ما كان ، وقد خطبت الناس حين غادرت البصرة قائلة : « انه – والله – ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها . وانه عندى على معتبى من الاخيار » . وقال على : « يا ايها الناس ، صدقت والله وبرت ، ما كان بينى وبينها الا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والاخرة » .

* * *

١٠ - اتهام عائشة بالتجسس :

اتهم « لامانس » عائشة بالتجسس على النبي لمصلحة أبيها كي تخبره بما يجب معرفته . وقال : انها استمعت والرسول يتحدث مع عثمان ابن عفان . يعنى بذلك ما جاء فى المسند للأحمد (ج ٦ ص ١١٤) انها قالت : « ما استمعت على رسول الله ﷺ الا مرة . فان عثمان جاء فى نحر الظهرية . فظننت انه جاءه فى أمر النساء فحملتنى الغيرة على ان أضغيت اليه فسمعته يقول : « ان الله عز وجل منبسك قميصا تريدك أمتى على خلعه فلا تخلعه » . فلما رايت عثمان يبذل لهم ما سألوه الا خلعه علمت أنه من عهد رسول الله ﷺ الذى عهد اليه .

والحادثة الثانية التى يرى لامانس انها ذروة التجسس هو افضاؤها لأبيها بما لم يكن الرسول قد قاله لأحد يوم عزم على فتح مكة . اذ دخل عليها أبوها . فوجدها تدبر جهاز الرسول . فقال : يا بنيت آمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟ قالت : نعم . فتجهز . قال : فأين تريه يريد ؟ قالت : لا - والله - ما أدري !!

والحادثان لا يستتبعان هذا الادعاء . فالحادث الأول : نزعة ودافع غيرة واضح من حديثها نفسه . اما الحادثة الثانية فليس فيها ما يفهم منه التجسس . اذ كان لا بد للرسول ﷺ من أن يخبر عن تجهزه للسفر . وقد أخبرهم فعلا بذلك لما حان الوقت . أما جوابها بأنه مسافر . فذلك ما لا يحتاج الى كبير عناء لمعرفة ، طالما كانت كل الظروف التى رآها أبو بكر فى منزل الرسول ﷺ توحى بأنه يريد السفر . ولو أنها أخبرت أباه بالجهة المقصودة لكان فى ذلك ما يؤيد رأى « لامانس » . اما وقد أنكرت معرفتها سواء علمت أو لم تعلم ، ففيه الدليل الكافى على دحض قول لامانس .

وقد قالت الكاتبة « Nabia Abbot » : ان ماسماه « لامانس » بالتآمر والتجسس ليس الا تصرفات طبيعية لامرأة شابة جميلة فرض عليها الحجاب مؤخرا .

« لقد جزم « لامانس » جزما قاطعا بما وصل اليه من نتائج . بالرغم

من أن الأسباب التي استند إليها لم تكن لتزيد عن حادثتين ، وليس من صفات العالم أن يعطى حكما قاطعا من ملاحظتين . والعالم الصحيح هو الذى لا يصنع قاعدة الا اذا تكررت أمثلتها ، وتأكد من صحتها . أما « لامانس » فقد اكتفى بحادثتين ، ووضع قواعد دلت النصوص على خلافها . فهل يبرر البحث العلمى - وقد رأينا كيف كانت أسسه عند الأب المحترم - اصدار أحكام قاسية كالجاسوسية والتآمر والسيطرة على رجل عاطفى ؟

« العالم الحق هو الذى ينظر الى الحقيقة كاملة . لا الذى يأخذ نصفها . ويترك النصف الآخر ، او يتجاهلها . لأن الحقيقة وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها . فتصبح نصف حقيقة مبتورة مشوهة .

« ولنذكر - بعد كل ذلك - أن « لامانس » وهو يكتب عن نبي الاسلام ورجال المسلمين ، انما يرتدى الثوب الكهنوتى اليسوعى ، وأن مهمته الاولى هى التبشير لغير الاسلام فى بلاد المسلمين « (٣١) .

« وقد كان يفيد أنه يعنى النظر فى طاعة عائشة لزوجها وسيطرته التامة عليها بالرغم من حبه وتدليله لها . حتى انها لم تكن تزور أباهما فى أثناء مرضه الا باذن من الرسول . لو فعل ذلك لأفاده عدم الانزلاق فى هذا الخطأ الأخير .

« أما ادعاؤه الآخر انها لعبت دورا فى تولية أبى بكر الخلافة . فهو بدوره ينقصه الدليل . وقد وردت عن عائشة أقوال عن الرسول فى فضل أبى بكر وتفضيله الا أننا نرجح أنها نقلت عنها بعد وفاة الرسول . والا لسئل عليه السلام عنها راسا . ولا يعقل أنها قيلت عقب وفاة الرسول مباشرة . فقد كانت عائشة فى شغل عن الدنيا كلها ، فى حزن على هذا الذى فقدته . واذن فتكون هذه الأقوال قد قيلت بعد أن بويح لأبى بكر . . . والتالى يكون ادعاء « لامانس » أنها لعبت دورا مهما فى استخلاف أبيها . وحبكت المؤامرة من أجل ذلك ، غير صحيح « (٣٢) .

(٣١) عائشة أم المؤمنين ص ١٥٦ .

(٣٢) المرجع السابق ص ١٥٠ - ١٥١ .

الرد على مستر كاش

● دعوى مسحة مسيحية على محمد (صلى الله عليه وسلم) :

قال المرحوم العلامة « خ . كمال الدين » فى كتاب « المثل الأعلى فى الأنبياء » الذى ترجمة الأستاذ أمين محمود الشريف :

« دأبت المجلة الاسلامية على أن تنشر بين الفينة والفينة صوراً قلمية فى وصف المصطفى ﷺ ، فلما قراها مستر « كاش » عقب عليها فى كتابه المسمى « العالم الاسلامى فى ثورة » بأننا نصور النبى ﷺ بصورة عليها مسحة من المسيحية .

والحق أن الغرب لم يعرف الاسلام ورسول الاسلام على حقيقتهما الا منذ عهد قريب جداً . وجل ما كان يعرفه الغرب عنهما لم يكن سوى اساطير من نسج الخيال حيكت خيوطها باتقان ، وافترأها قوم لا ضمير لهم ولا وجدان . ولكن سرعان ما تجلت صورة الحق فى جمالها الطبعى حتى بهرت أبصار الأعداء ، وفضحت زيف ما كتبوا وسطروا ، وهدمت صرح ما بنوا وشيدوا ، وتبدت لهم صورة الحق رائعة ساحرة تأخذ بمجامع القلوب ، وتستأسر أحداق العيون ، فلم يستطيعوا أن يجدوا فيها مأخذاً ، ولا الى النقد منفذاً ، وما كان جوابهم الا أن قالوا : « صورة محمدية مستعارة من المسيحية » ، ثم قالوا : « لا جدال أن هذه الصورة رائعة الحسن والجمال . فلا يمكن أن يكون مصدرها الاسلام » ، تلك كانت حجتهم التى وجدوا فيها بعض سلوى وعزاء ، ثم بدا لهم من بعد ما راوا الآيات ان حجتهم داحضة ، وأن قضيتهم خاسرة ، فنكسوا على رؤوسهم ، ولأذوا بأذيال دعوى جديدة فقالوا : « اسلام جديد ومحمد جديد » ، تلك هى صيحتهم اليوم ، وما كنا لننتظر منهم أكثر من هذا الثناء ، وقد قبلنا ما قالوه على هذا الاعتبار .

نعم لا يزال ذكر المصطفى ﷺ جديداً على أسماع أهل الغرب ، مثله فى ذلك كمثل زهرة جميلة كأجمل ما أنت راء فى زهور الطبيعة . كلما مرت عليها الأيام زادت حلاوة وطلاوة ، وكلما مرت عليها الأيام زادت

غضارة (٣٣) ونضارة ، والواقع ان ما يراه الجاهل قبيحا منفرا يراه العالم جميلا ساحرا ، وكلما أنعم النظر فيه تبدت (٣٤) له محاسنه .

وانه لمن دواعى الأسف أنه ليس الجاهل وحده هو الذى حجب أنظار أهل الغرب عن مشاهدة أنوار المصطفى ﷺ . بل ران (٣٥) على قلوبهم ما كانوا يكسبون من افتراء الكذب ، وتحريف الوقائع وكتمان الحقائق .

ان دعواهم « محمد جديد واسلام جديد » ليست صحيحة جديدة . بل هى صدى للصيحة القديمة التى تتردد فى الغرب كلما ظهر فى أوروبا أحد المعجبين بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ممن لا يخشون فى الحق لومة لائم . ومن قبل ما قالوا عن « جبيون » انه كاتب وثنى . لأنه أثنى على النبي ﷺ ، وقال كلمة الحق عن حالة المسيحية وقت مبعثه مما لم يرق فى نظرهم .

ولما جاء « كارليل » وكشف النقاب عن الجمال المحمدى وجلاه لأعين الغربيين ، هبت فى وجهه الصيحة القديمة بعنف حتى اضطر عميد جامعة ادنبرة أن يذعن لها ، واضطر على الرغم من قوة شكيمته أن يخفف من لهجة ثنائه فيما بعد . ولكنه على كل حال فتح أعينا عميا وآذانا صما ، وأعقب كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ما كتبه هجنز وديفونبرت ويوز ورث سمث فى انجلترا وكرهل وجريمنس فى المانيا .

أما الكتاب العظيم الذى ألفه « كيتانى » الايطالى فيرى عثماء الغرب انه هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها النصارى على الاسلام .

وجملة القول ان نظرة الغرب الى النبي ﷺ قد تغيرت . فلم يعد فى نظر الغرب دجالا . بل مصلحا عظيما ، ولم يعد مصابا بمرض عصبى يشكو من الصرع . بل رجلا ذا شخصية عظيمة وعزيمة ماضية بل حاكما

(٣٣) غضارة : حسنا وامتلاء .

(٣٤) تبدت : ظهرت .

(٣٥) ران : تكاثف واصبح حاجبه كثيفا .

مستنيرا يغمر الرعية بحبه وفضله . ولم يعد رجلا وصوليا . بل نبيا ذا مبدا
ثابت لا يحيد عنه ولا يتزحزح . كل هذا قد اعترفت به أوروبا اعترافا
صريحا .

... » وان النهضة الحديثة التي عم نورها أهل الغرب وفتحت
أعينهم الى مزايا الاسلام هي التي أشاعت الاضطراب في معسكر الأعداء .
ونفذت الصورة التي جلونا فيها مناقب النبي ، الى أعماق قلوبهم بدليل
قولهم : اننا نحاول التدليل على أن محمدا ﷺ هو المثل الأعلى للإنسانية
من الوجهة الخلقية ، وأننا لجأنا في سبيل ذلك الى تصويره في صورة
جديدة استعيرت ألوانها من المسيحية .

● الرد على الدعوى :

ولكننى أسأل المسيحيين بصفة جديدة . فأقول : « هل يوجد في
المسيحية من الألوان ما يسعف ريشة المصور في رسم صورة سوية تصلح أن
تكون مثلا أعلى للإنسانية ؟ الواقع أن المبشرين يطلقون لقب مسيحي على
كل ما يروق في نظرهم وان لم يرد له ذكر في كتابهم . وبتتبع الثابت عن
رسول الله ﷺ من السيرة ثم بدراسة الانجيل يمكن أن نعرف عن بيئة أن
الكتاب المقدس ليس فيه عشر ما دون عن محمد صلى الله عليه وسلم ،
وبالتالى تتبين فرية (٣٦) القائل اننا نستعير لمحمد وصفا مسيحيا .

وان كثيرا من الفلاسفة مثل دكتور « غوستاف لوبون » ومثل « ول »
ومثل مستر « بول » تحدثوا عن محمد عليه الصلاة والسلام بما رددته
المؤرخون العرب القدماء ، وبما نستنبطه نحن المحدثين ، فهل يقول مستر
كاش ان هؤلاء أيضا قد خلعوا على محمد ﷺ أوصافا مسيحية ؟ جدير
به أن ينعم النظر قبل أن يجرؤ على هذا الزعم .

(٣٦) فرية : ادعاء كاذب .

أهـى جرائم قتل ؟

عقد المستر « كاش » فى كتابه « اتساع رقعة الاسلام » فصلا بعنوان « جرائم القتل » أورد فيه قصصا استدل بها على غلظ قلب النبى « المبعوث رحمة للعالمين » .

١ - مقتل عصماء :

فرغم أن النبى ندب أبا بصير عمير بن عدى وهو كفيف البصر الى قتل امرأة من قومه هى عصماء بنت مروان ، وهى شاعرة يهودية ولاؤها لبنى الأوس .

والجواب : انها كانت تسب النبى كثيرا سبابا فاحشا بعد مقتل أبى عفك اليهودى . وكانت سليطة ترهب الذين يريدون أن يدخلوا فى الاسلام من قومها ، فلما قتلها أبو بصير استعلن بالاسلام من قومها كثيرون .

وهى رواية منكرة لأنها تخالف الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ من نهيه عن قتل النساء فى الحرب فما بالنا بذلك فى السلم؟! وفى صحيح البخارى باب بعنوان « قتل النساء فى الحرب » روى فيه النهى عن قتل النساء والأطفال . وفى فتح البارى أن أصحاب النبى الذين ذهبوا لقتل عدو الله ابن أبى الحقيق أمسكوا عن قتله حين حالت بينهم وبينه روجه ، تنفيذا لحديث النهى عن قتل النساء .

ثم ان هذه الرواية لم يروها محدثون ثقات ، فهى رواية الواقدى وابن سعد وابن هشام .

٢ - مقتل أبو عفك :

ثم زعم أنه عليه الصلاة والسلام قتل أبا عفك وكان عمره (١٢) عشرين ومائة سنة .

والجواب : ان هذا يخالف الثابت عن رسول الله ﷺ من النهى عن قتل العجائز ، ففى سنن أبى داود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

« انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ، ولا تغلوا وضموا غنائكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » . وهى وصية محفوظة كررها أبو بكر فأوصى بها جيش زيد حين أرسله الى الشام اذ قال له « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا (٣٧) ولا تمثلوا (٣٨) » ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة » ، وهذا خير دليل على كذب وبهتان هذه الفرية أيضا .

* * *

٣ - أبو سنيّة واليهود :

وقد زعم أن النبي أمر بآبادة جميع اليهود حتى تمكن من قتل أبى سنيّة .

والجواب : أن هذا ينقضه ما صح عن النبي أنه نهى عن قتل النساء والأجراء الذين يقومون بأعمال غير القتال وعن قتل الشيوخ والأطفال كما فى حديث أبى داود . وكل رواية عن قتل انسان لم يشترك فى القتال اشتراكا فعليا أو استحق القتل قصاصا أو حدا . فهى مكذوبة على رسول الله ﷺ وان كان اسنادها صحيحا . . ومن هذا القبيل رواية مقتل أبى سنيّة « فان الادعاء بأن النبي صلى الله عليه وسلم أصدر أمرا عاما بآبادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبى سنيّة وحده . ادعاء يناقض نفسه بنفسه . فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لآبادة اليهود جميعهم ! » (٣٩) .

* * *

(٣٧) الغلول : هو اخفاء شيء من الغنائم قبل توزيعها على الجنود . فالواجب على الجندى أن يسلم ما يغنمه لقيادته .
(٣٨) التمثيل بجثث القتلى هو تشويهها لشدة الحنق والغضب على أصحابها .

(٣٩) زكريا هاشم فى المستشرقون والاسلام ص ٣٠٨ .

٤ - مقتل كعب بن الأشرف :

كان والده من طيء . وقد تزوج كعب من بنى النضير فكسب بنسبه ومصاهرته منزلة كبيرة . وعندما وفد النبي ﷺ على المدينة عقد معاهدة مع اليهود على أن يكون المسلمون واليهود معا ضد كل معتد على المدينة . ولكن بعد بدر اغتاز اليهود ومنهم كعب الذى أخذ يهجو النبي بشعره محرضا المشركين على قتاله ، ورحل الى مكة يحرض اهلها على الرسول . ولم يكتف بهذا بل وضع خطة لاغتيال الرسول عقب عودته من مكة . وانقلب من موقف الحليف الى موقف الأعداء المقاتلين فاستحقق الاعدام . ولكن « كاش » و « موير » يجعلان من مقتله سبة عار لحركة الاسلام ..

وقد روى ابن سعد ان اليهود لما جاءوا الى النبي يشكون اليه مقتل كعب قال لهم : انه آذانا . ولو وقر كما وقر غيره ممن هو على مثل رايه ما اصابه شر . وعرض عليهم النبي أن يكتب لهم كتابا فقبلوا . وبقي هذا العهد عند « على » وقد روى البخارى أسباب قتل كعب التى ذكرناها . وهناك رواية أخرى تقول : ان محمد بن مسلمة حين سأل النبي فى قتله كعبا قال له : « ان كنت فاعلا فلا تعجل حتى تستشير سعد بن معاذ » وفى رواية انه سكت ولم يحر جوابا .. ولكن لورد « موير » يكثر من ذكر تفاصيل خطة اغتياله موهما أنها من صنع محمد عليه الصلاة والسلام . وموير نفسه يبدى التشكك فى هذه التفاصيل . وموير وكاش وغيرهما يعلمون أن كل القوانين الوضعية والسمائية تجعل مجرم الحرب المحرض على نشوبها والمدبر لها مستحقا للاعدام .. وهذا هو الذى فعله المسلمون . غير أنهم كانوا نبلاء فرسموا الخطة التى تكفل عدم اراقة دماء غير دم المجرم . فاستدرجه محمد بن مسلمة ليلا الى خارج الحصن فقتله . حتى لا يتعرض لحماية قومه أو آل بيته فتكون الضحايا اكثر من جزور .

٥ - مقتل سلام بن أبى الحقيق :

ولا أدرى أى غضاضة فى مقتل سلام ، انه كما يعترف « كاش » و « موير » شجع بعض القبائل المجاورة على قتال المسلمين حتى نهض

على بن أبى طالب على رأس جماعة أطفاف نار غدرهم . وكان سلام
هذا قائدا فى موقعة الأحزاب فهل فى قتل المحاربين والمحرضين على
حرب المسلمين غضاضة أو خطيئة أو تهمة لمن قتله فقتل جرثومة شر
بقاؤها بقاء للفتنة ؟ ..

* * *

٦ - سبى نساء بنى المصطلق :

زعم « كاش » أن المسلمين أسروا نساء بنى المصطلق .. وكل ما جاء
فى الأمر هو ما روى عن أبى سعيد الخدرى أن نفرا من المسلمين شاعوا
أن يتزوجوا بعض الأسيرات زواج متعة . على أن يعزلوا حتى لا تحمل
الزوجات . فنهى عن ذلك الزواج الذى يسمى زواج المتعة . والثابت
الصحيح أن النبى تزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق فأطلق
المسلمون كل الأسرى الذين فى أيديهم تكريما للنبى ﷺ .

* * *

شبهات كارليل

عاب « كارليل » على القرآن :

- ١ - نقص الترتيب فيه ويزعم أنه ليس مرتب الفكر .
- ٢ - ولا منطقيا .
- ٣ - وبه تكرار .

الجواب :

اما ترتيب الفكر القرآنى فانكاره دليل على ان القائل بهذا ضحل الثقافة الاسلامية . فالمفسرون الكبار لم يتركوا آية أو سورة الا وتعرضوا للعلاقة التى تربط الآية أو السورة بما قبلها وما بعدها . وذلك لأن ترتيب الآيات القرآنية توقيفى بالاجماع وترتيب السور توقيفى عند الجمهور . وفى تفسير سورة القصص الذى كتبته نماذج لهذا .

وعذر الغربيين فى هذه الدعوى عندما قالوها أن طبيعة عصرهم كانت تجنح الى التنظيم الكمى والنوعى ومنطق الاحصاء والتبويب ، فأرادوا ان يمزقوا الهيكل القرآنى ليجعلوا منه ابوابا متنوعة لركام نوعى . فكل ما يتعلق بالصلاة له باب ، وكل ما يتعلق بالقضاء له باب ، وما يتعلق بالقصة كذلك ، وهكذا ، كمن يمزق الانسان ليجعل الأصابع فى معرض والعيون فى معرض والأذنين فى معرض متجاورات . . ومثل هذا لا يجعل من الانسان انسانا ، فللعين رسالتها فى مكانها من الجسم مفصولة عن العين الأخرى بالأنف ، وهكذا : أجزاء الآيات تؤدى كل آية وظيفتها الجمالية والعملية فى مكانها بين غيرها . وتفقد خواصها اذا جردت عما قبلها وما بعدها . وهكذا الفكرة الأدبية الرائعة لا تكون ببراء الا وهى شوهاء بالقياس اليها ذاتها وهى واسطة العقد ، أو حبة من حباته .

وقد انتقلنا من عصر الكم والاحصاء واطراد النظريات والتسليم بفوائدها النسبية . الى عصر الايمان بالزمن كأحد الأبعاد الأربعة اللازمة

للأشياء . عصر فلسفة الحركة والتطور ، عصر التحليل النفسى وادراك ما سماه العرب الأقدمون فى النقد الأدبى « تداعى المعانى » ، ومنطق العصر العلمى لا يعد اذن انسياب الأفكار والمبادئ المعروضة فى القرآن على ما هى عليه عيبا . وانما يعتبره أمرا طبيعيا . . فالترباط نسبى ووراء الأبعاد المعروفة بعد آخر كان مجهولا ، ووراءها كشف مجهول لا ندرك كنهه . والأسلوب القرآنى فيه طبيعة الحركة وفيه سمو الترقى بالقارىء ، عقله وروحه ووجدانه وسلوكه . . وطبقا لكل هذا الذى نعرفه وذلك الذى نجهله كان القرآن ، وجهلنا بالحكمة لا يعنى انها غير موجودة . ولو كان عند كارليل حس جمالى للأدرك مثلا فى تجاوز سورة القمر بوعيدها وتهديدها المزمجر العاصف وسورة الرحمن بجنانها الوارفة المثمرة صورة واد مجذب رهيب انتهى الى واد خصب ظليل . .

* * *

● سطحية العبارة أم العمق ؟

وأما عيب القرآن بأن منطق سطحي ولا يصب فى اطار الهياكل المنطقية (٤٠) التى صممها المناطقة للفكر فمردود لأمر :

أما المنطق السطحي للقرآن فهو أحد وجهيه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (٤١) فلا بد له - وهو كتاب هداية للكافة - أن يكون ظاهرا مقنعا مرشدا مفيدا بسطاء الناس وعامتهم . . وذلك مستوى نلتقى عنده كل مستويات الذكاء ، فتقوم بهذا الوحدة الأساسية التى تتلاقى عندها جميع الطبقات ، فلا تقع مأساة التمزق الاجتماعى الناشئ عن الانفصام (٤٢) الفكرى الطبقي . انفصام الذين يعيشون فى الأبراج العاجية

-
- (٤٠) الهياكل المنطقية هى أساليب الاستدلال وترتيب القضايا المنطقية مثل ا = ب ، وب = ج ، ا = ج .
 (٤١) القمر : ١٧ .
 (٤٢) الانفصام : الانقطاع والانفصال .

عن الذين يرقصون على زفيف السواقي(٤٣) وخفيف الذرة والقصب وسعف النخيل .

والوجه الثانى : هو العمق الذى وراء السطح وهو المناملين ذوى البصر « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٤٤) وهو المعنى بمثل قوله سبحانه « عبرة لأولى الألباب »(٤٥) ، « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون »(٤٦) ، « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تاويلا »(٤٧) ، وبقوله سبحانه مع التجوز « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »(٤٨) .

واليك مثلا من القرآن قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »(٤٩) . كلام مسطحة الدعوة الى تأمل المسلم فيما يسمعه من القرآن ، فهو من عند الله خالقه ، والدليل على ذلك عدم وجود أى اختلاف واضطراب فيه بل هو محكم بديع مستقيم الأسلوب والأفكار والعظات .. وهذا المعنى الوهلى يكفى جدا ملتقى فكريا للبشرية فى موضوع الآية . فهى سطحية مثمرة .

واما المختصون وذوو المدارك العالية فالآية تفيض من اعماقها ما يفيضه النبع الثر البكر ، فتدبر القرآن معناه تقلب وجهات النظر ظهرا لبطن فى مسائله . وتحليلها والتعرف على الغايات منها بعد اكتشاف اسباب النزول ان كانت اسبابا شخصية او ظاهرة اجتماعية تاريخية فى وقوعها او متوقعة من شأن مسيرة الأحداث ان تصل اليها .

والاستفهام للانكار والتقريع . وفيه نعى على القيادات الشعبية الا تكون ذات بصر ثاقب بمجريات الأمور وربط مسيرتها بالقرآن : دفعا لها

(٤٣) زفيف الساقية صوتها حين تدار ، والأصل فى اللغة ان يقال زف الظليم (ذكر النعام) : أسرع ، وزف البرق : لمع . والمراد هو دوران وصوت الساقية .

- | | |
|--------------------|------------------|
| (٤٤) محمد : ٢٤ | (٤٥) يوسف : ١١١ |
| (٤٦) العنكبوت : ٤٣ | (٤٧) النساء : ٥٩ |
| (٤٨) الأنبياء : ٧ | (٤٩) النساء : ٨٢ |

طبقا للأوامر الموجبة ، أو منعاً وقمعا وتعويقا طبقا للنواهي الكافية
الراجعة . ولا يتم ذلك لرجل الا لمن عايش القرآن بقلبه وعقله وتطبيقاته .
ومعنى هذا أن القرآن يريد خلق قادة ذوى بصر بدستور واضح المعالم .
محدد الغايات والمسالك . وهذه قمة تنشأ الآن من أجلها مدارس المساسة
العالية فى الغرب . ومدارس ما يسمى بالكوادر فى الشرق . وهو آخر
مبتدعات الدراسات الاجتماعية والسياسية فى هذا القرن . وآخر
ما ابتدعته هذه الدراسات هى ذرات فى سفح الجبل الأشم الراسى
« الاسلام » .

ثم ماذا يعنى بتدبر القرآن ؟ اقصصه ؟ انواهيه ؟ اوامره ؟ التذكير
بالله ؟ . ما آثار ذلك فى المتدبر وما العلاقة بين شطر الآية الأولى
وشطرها الثانى ، وما الذى ينكره على القرآن من الاختلاف ؟ وما وجه
الدلالة على أن القرآن من عند الله ما دام خاليا من أوجه الاختلاف ؟
هذه وغيرها دراسات عميقة فى الآية للمتخصصين . ألم بها الامام محمد عبده
ومحمد رشيد رضا فى تفسير المنار (ج ٥ ص ٢٨٧ - ٢٩٧) .

ولقد عرف الوليد بن المغيرة المخزومى فى الجاهلية سطح القرآن
الأعلى وعمقه الأسفل فقال : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه
لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما هو من قول البشر ، وصدق الله العظيم
اذ يقول : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (٥٠) .

واما أن القرآن غير منطقى ولا عميق لأنه يخاطب ذوى الذكاء
المحدود . فقول ساقط ، لأن القرآن يخاطب كل الطبقات بلغة انفردت
بقدرتها على احتواء كل عقول السامعين مهما اختلف مستواهم الذكائى .
وفضلا عن هذا ، فقد انطوى العصر الذى يعرف فيه الانسان بأنه فقط
حيوان ذكى . وقد انطوت فلسفة علم النفس التى تجعل كل أحداث
الكون وتصرفات الانسان وصلاحيته لأداء دور الانسان فى الحياة طبقا
لما تنطق به أرقام « مقاييس الذكاء » ، لقد انكشف لذوى البصائر أن

هذالك مثلا عليا . واحاسيس انسانية ، وما يسمى « ضميرا » واعتذر
لأستاذنا كامل النحاس منكر « الضمير » كجهاز فى الانسان ، فأننى
اعنى به مصطلحا خاصا بمركب أدبى عاطفى اجتماعى علمى ، به يكون
احساس المرء بالرضا عن عمله أو بالوخز والألم . وهذه الأحاسيس والمثل
مع غيرها تحكمنا فى مسيرتنا الاجتماعية ، والقرآن اذن حينما يجنح
فى منطق الاقناعى الى تكوين « عاطفة » أو « وجدان » أو « ضمير »
الى جانب المنطق العقلى بالدليل العلمى . يكون هو المنطقى مع
الانسان . ومع الفكر ومع علم الاجتماع والنفس . ويكون المنكرون عليه
هذا الأسلوب هم الفاقدى المنطق والمختلى التفكير .

والعجب أن المستشرقين حين يثيرون هذا على القرآن ينسون -
وكثيرون منهم مبشرون والقلة هم الملحدون - أو يتناسون أن التوراة
والانجيل قد عمدا الى الوجدان يناجيه . والى الخيال والتصوير البيانى
ينميان الشعور الطيب ، فبه الاندفاع الى الخير قبل أى بحث عن
العلة المنطقية .

والحديث عن القالب الجدلى الفلسفى $ا = ب$ ، $ب = ج$ ، $ج = ا$.
وغيره من المقررات فى علم المنطق أصبحت نظريات إثرية « متحفية » ،
وعلى الأكثر قضايا أولية مدرسية ، فللعصر الحديث الآن اساليب أخرى
اقوى وأسرع ابانة واقناعا وتأثيرا ولذا ما أظن عاقلا يعيد هذه الشبهات
التي نضح بها عصر البخار قبل بزوغ شمس عصر الفضاء - الا أن يكون
كذابا أشرا بمضى الى المجهل والأدغال النائية يقطع على أهلها طريق
النور والعرفان . أو رذل سفه نفسه .

● التكرار :

وأما الحديث عن تكرار بعض الفقرات والمعانى بأنه عيب ، فهذا
دليل الجهل وفقدان التذوق الفنى . ذلك لأن لكل جملة تكررت مزيتها .
كالعينين والأذنين فى الانسان والحيوان . فمع أن لكل جراحة فائدتها

منفردة فان وجود العينين مجتمعتين ، والأذنين كذلك لهما مزايا تزيد عن المزية التى تعطىها العين أو الأذن أو الرئة والاصبع أو الذراع أو الكف فى حال الانفراد ، لا ينكر هذا الا مكابر أو من سفه نفسه ..

على أنه من البدهى أن المرء قد يقول الجملة الواحدة فى معرض لتؤدى غرضا ويقولها ذاتها فى معرض آخر لتؤدى غرضا آخر . وكما يؤدى الرجل منا عدة وظائف تؤدى الكلمة القرآنية عدة وظائف فى مقامات مختلفة بين سطور التنزيل . بل وفى مقامات مختلفة فى عالم السلوك . وهذا سر خلود القرآن ونماء فلسفاته ومعانيه مع الأزمان والأحداث . « ولو أنما فى الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » (٥١) .

هذا من حيث الدلالات المعقولة ، وفى المكرر عند تكراره ، زيادة عن المعنى المنفرد عندما نقطع الجملة عن السياق .

وأما الناحية الفنية والجمالية ، فيبدو أن القائل بهذا وأمثاله لم يعرفوا طبيعة اللغة العربية وطبيعة العرب الذين هذه لغتهم . ان الصحارى والجبال والأودية فى حياتهم متشابهة ومتكررة . والفرق الذى يميز بينها دقيق لا يدركه الا الخريت الماهر ، وهم يجدون الجمال فى هذا التشابه والتشاكل الذى يتطلب شحذ ذكاء كل من يعيش ويمشى فى هذه المسالك . والأذكىاء لا يحبون الدلالات الصارخة كالدائرة الأولى فى أعلى لوحة كشف المنظار . وكذلك جاء القرآن لقوم بلاغتهم فى الدلالة الذكية ، ولو أن القرآن نزل بلغة قوم أقل ذكاء ولما كالأوربيين لكان للمستشرقين من الأسلوب ما أرادوا ، فلكل لغة طابع أهلها فى تفكيرهم وتصوراتهم وتعبيراتهم البيانية . لو خرج عن هذه الأصول العامة لما كان له إيقاع على الوجدان ووقع فى القلوب .

على أن التكرار مظهر جمالى تلمسه فى الرسوم الزخرفية وفى الموسيقى ، وفى الحركات الإيقاعية المنتظمة ، وحتى فى تنظيم الاستعراضات العسكرية والرياضية ، بل ان الجمال الفنى فى الشعر قوامه

الأول يرجع الى تكرار ايقاع المقطع . وجمال النثر المسجوع يعود الى ظاهرة تكرارية بوجه عام . ولذا يمكن أن يقال للقرآن أعظم سيمفونية سمعها العرب فخضعوا لها ، لأنها لحن معبر أصدق تعبير عنهم وعن مجتمعهم وعن الجنس البشرى الذى يحسون طبيعته فى أنفسهم ، ويستشعرون فيه دليل الأمن وروح الايمان . ان كل ما فى القرآن من مكرر وغير مكرر يمضى متسقا نحو غايات محددة ، هى تعميق الايمان بالله وحده ، وجذب العالمين اليه بذكر فضائله ونعيمه أو عذابه . ورسم المثل الواجب على المرء اتباعها فى عبادته وعاداته ليزداد بالله ايمانا .. وهذا هو ابداع التصوير الفنى أو كما يقولون « التعبير القوى الأخاذ » .

* * *

● مقال القاسمى فى سر التكرير :

الشيخ محمد جمال الدين القاسمى (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ : ١٨٦٦ - ١٩١٤ م) من علماء الشام الكبار وقد جعل مقدمة التفسير الذى سماه محاسن التأويل فيما ينبغى للمفسر ودارسى القرآن أن يعلمه من علم الأصول وتاريخ القرآن وعلومه . وجعل لسر التكرير فى القرآن فصلا خاصا نقله عن الامام عز الدين بن عبد السلام من كتابه « الاشارة الى الایجاز فى بعض أنواع المجاز » وعن تقى الدين بن تيمية ، ولأهمية ما نقله نوره فيما يلى (٥٢) :

قال الشيخ عز الدين : « فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها .

وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للايقاظ والاعتبار . وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها . لأن منها ما يحث على الطاعة والایمان ، ومنها ما يزجر عن الكفر والعصيان وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام . وكذلك تكرير المدح والذم وما يترتب

(٥٢) تفسير القاسمى ج ١ ص ٢٥٧ ثم ص ٢٦٤ .

على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات ، فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيباً في ثوابها ، وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيباً من عقابها ، وتكرير النيران بين الوعد وأنوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطوا من رحمة الله وفضاله ، ولا يغتروا بحلمه وامهاله ، وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالايضاح والبيان ، وتكرير ذكر النعم يدل على الاعتناء بشكرها .

« واعلم انه لا تؤكد العرب الا ما تهتم به فان من اهتم بشيء اكثر مرّة ذكره . وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد . وكلما خف الخوف التأكيد . وان توسط الاهتمام توسط التأكيد . فاذا قال القائل : زيد قائم فقد اخبر بقيامه ، فان اراد تأكيد ذلك - عند من يشك فيه أو يكذبه أو ينزعه فيه اكده فقال : ان زيدا قائم . فاذا جاء بـ « ان » فكانه قال : زيد قائم زيد قائم ، فان زاد في التأكيد قال : ان زيدا لقائم ، فيصير بمثابة ما لو قال : زيد قائم ثلاث مرات .

● امثلة لذلك :

قوله تعالى : « قل يا ايها الكافرون . لا اعبد ما تعبدون . ولا انتم عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد » (٥٣) قوله : « ولا انا عابد ما عبدتم » تأكيد لقوله : « لا اعبد ما تعبدون » وقوله : « ولا انتم عابدون ما اعبد » الثانية تأكيد لقوله : « ولا انتم عابدون ما اعبد » الاولى . او الآية الرابعة والخامسة تأكيد للثانية والثالثة من السورة . لما وقع الاهتمام بالا يوافقهم على عبادة الاصنام وبأن الله قد حرمهم أن يدخلوا في دين الاسلام أكد ذينك نشدة الاهتمام بهما . فهذا تأكيد واحد لكل واحد من الخبرين .

« وعلى الجملة : فقد اكد نفى عبادته للأصنامهم بقوله : « ولا انا عابد ما عبدتم » وأكد نفى عبادتهم لمعبوده بقوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

وان حمل ذلك على وقتين مختلفين فلا تأكيد اذن .
ومثال تكرير التأكيد قوله تعالى : « الهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . » (٥٤) المعنى : الهاكم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمعاد . ثم زجرهم عن التكاثر بقوله : « كلا » ، ثم هددهم بقوله : « سوف تعلمون » ثم اكد الزجر الأول بـ « كلا » الثانية ، ثم اكد التهديد بـ « سوف تعلمون » ثم اكد الزجر « كلا » الثالثة ، فزجرهم ثلاث مرات للاهتمام بزجرهم عن ذلك . وهددهم على ذلك مرتين ، للاهتمام بالاستعداد للمعاد .

ومثل هذا قوله تعالى : « عم يتساءلون . عن النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون » (٥٥) زجرهم بـ « كلا » الأولى عن التساؤل والاختلاف . ثم اكد « كلا » الأولى بـ « كلا » الثانية ، وتهديدهم فيما بينهما بقوله بعد : « سيعلمون » ثم اكد هذا التهديد بقوله بعد « كلا » الثانية « سيعلمون » .

وأما تكرير قوله : « ويل يومئذ للمكذبين » (٥٦) : (أ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع كذب بقوله : « انما توعدون لواقع » (*) .

(ب) ويجوز أن يريد بكل عدة من عذاب الويل من كذب بما بين عدتي كل ويل . وأما قوله : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » (٥٧) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ، ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها . وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية ، وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة . وهكذا الى آخر السورة . فان

(٥٤) التكاثر : ١ - ٦ . (٥٥) النبا : ١ - ٥ .

(٥٦) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ . الخ . (*) المرسلات : ٧ .

(٥٧) الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ . الخ .

قيل : كيف يكون قوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » (٥٨) نعمة ، وقوله : « يعرف المجرمون بسيماهم » (٥٩) نعمة . وكذلك قوله : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » (٦٠) وقوله : « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس » (٦١) وقوله : « يطوفون بينها وبين حميم آن » (٦٢) ؟ .

قلنا : هذه كلها نعم جسام . لأن الله هدّد العباد بها استصلاحا لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان الى حيز الطاعة والايمان والانقياد والاذعان ، فان من حذر من طريق الردى (٦٣) وبين ما فيها من الأذى ، وحث على طرق السلامة الموصلة الى المثوبة والكرامة . كان منعما غاية الانعام ، ومحسنا غاية الاحسان .

ومثل ذلك قوله : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » (٦٤) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام .

واما قوله : « كل من عليها فان » فانه تذكير بالموت والفناء للترغيب فى الاقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الاعراض عن دار الفناء .

واما قوله : « وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين » (٦٥) فان تقديره عند بعضهم : وان كانوا من قبل انزال القطر عليهم من قبل انزاله لمبلسين : فأكد « قبل » الأولى بـ « قبل » الثانية .

وهذا لا اهتمام فيه . فانه معلوم ان الياس من نزول المطر كان

-
- (٥٨) الثقلان : الانس والجن - والآية من سورة الرحمن : ٣١ .
(٥٩) سيماهم : سواد وجوههم وزرقة عيونهم - والآية من سورة الرحمن : ٤١ .
(٦٠) الرحمن : ٤٣ .
(٦١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس : دخان وقيل هو الصفر والنحاس المذاب - والآية من سورة الرحمن : ٣٥ .
(٦٢) حميم آن : ماء اشتد حره . والحميم الآنئ الذى قد صار كالمهل أى دردى الزيت الأسود - والآية من سورة الرحمن : ٤٤ .
(٦٣) الردى : الهلاك . (٦٤) يس : ٥٢ .
(٦٥) لمبلسين : المبلس : الساكت على نفسه - والآية من سورة الروم : ٤٩ .

محققا قبل الانزال . فلا حاجة - فى مثل هذا - الى التأكيد . ولهذا
قدر آخرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ارسال الرياح ،
او من قبل اثاره السحاب لمبلسين ، فعلى هذا لا يكون تكريرا ولا تأكيدا .

● تكرير قصة موسى :

وقال ابن تيمية : « وثنى فى القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما
فى طرفى نقيض ، فى الحق والباطل . فان فرعون فى غاية الكفر
والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة . وموسى فى غاية الحق والايمان
من جهة أن الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطة من
خلقه . فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكليم ، ومثبت لرب العالمين
بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف اكثر الانبياء مع الكفار . فان
الخفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ، ولم يكن أيضا للرسول - من
التكليم - ما لموسى . فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص ، وأعظمها
اعتبارا لأهل الايمان ولأهل الكفر . ولهذا كان النبى يقص على أمته
عامه ليله عن بنى اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ،
ونما بشر بقتل أبى جهل يوم بدر قال : « هذا فرعون هذه الأمة » وكان
فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ، ولهذا كان يعبد آلهة من دون
الله ، كما أخبر عنه بقوله : « ويذكرك والهنك » (٦٦) . وان كان عالما
بما جاء به موسى ، مستيقنا له ، لكنه كان جاحدا مثيرا . كما أخبر
الله بذلك فى قوله : « فلما جاعتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين .
وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (٦٧) وقال تعالى : « ولقد
آتيناه موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له
فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء
الا رب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثيرا » (٦٨) .

-
- (٦٦) الأعراف : ١٢٧ . (٦٧) النمل : ١٣ ، ١٤ .
(٦٨) بصائر : عبر ، مثيرا : هالكا . أو مصروفا عن الخير -
والآية من سورة الاسراء : ١٠١ ، ١٠٢ .

● رأى جوته فى التكرار :

قرأ اديب المانيا الاكبر « جوهان ولفانج جوته » ترجمة مرجلين ثم ترجمة مراتشى للقرآن فقال : ان القرآن يردد قواعد تعاليم الاسلام ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا التريد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا ﷺ لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتفريع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الاخيلة والاهوام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وانما محمد ﷺ نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسيلة واقوم طريق ، وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الامم حولها لينضموا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد ﷺ انما بعث به الى الناس ليقتضيه القنوت والايمان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والخبار ، بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب المثل ومواضع الاعتبار « (٦٩) » .

ترابط الآيات والسور

اجمع المؤرخون على أن ترتيب الآيات ، ووضع كل كلمة في القرآن في موضعها الحالي توقيفي ، أي نزل الأمر به من الله لنبيه فعلمه أصحابه ، وكذلك كثير من السور علم ترتيبها في حياته ﷺ منه (ﷺ) كالسبع الطوال والحواميم وسور المفصل ، ولهذا لم يكن هنالك أي مجال للاجتهاد في ترتيب سور القرآن وآياته بعد وفاته (٧٠) .

ولقد كان جهل المستشرقين الفاضح باللغة وأدبها سببا في عدم ادراكهم الاحكام الفنية والمعنوية بين الآيات بعضها مع بعض ، وهكذا سور القرآن الكريم ، ويبدو أن قراءة بعضهم لتفسير القرآن محدودة ، كما أن بعضهم أعماه الحقد فرمى القرآن بعدم الترابط بين سور القرآن وكذلك بين آياته ، والعجب أن هؤلاء المستشرقين أجهل الناس بأدب شعرائهم وكتابهم ثم هم يقحمون أنفسهم على أدب القرآن وبلاغته فيقول بعضهم : هنالك عدم ترابط في الآيات .

١ - الترتيب النفسي :

- « أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت • وإلى السماء كيف رفعت • وإلى الجبال كيف نصبت • وإلى الأرض كيف سطحت » (٧١) .

الواقع أن الآيات مترابطة تمام الترابط ، فجميعها سيقت في معرض البرهان على عظمة الخلاق العليم المنعم المتفضل ، فلا تنافر في الترتيب المذكور في الآية (الأبل والسماء والجبال والأرض) فهي جميعا مشاهد كونية معروضة لنظر الإنسان ، تظهر فيها قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

-
- (٧٠) القرآن والمستشرقون لأبراهيم لطفى جمعة ص ٧٦ نقلا عن السيوطي والقاضي أبو محمد بن عطية .
- (٧١) الغاشية : ١٧ - ٢٠ .

بل ان الترتيب المذكور لهو الجدير بالاعجاب ، اذ يمضى مع طبائع النفس والأشياء . فان اول شيء يقترب الى قلب المخاطب فى مهبط الوحى هو الابل تحمله وامتعته الى بلد ما كان ليبلغه الا بشق النفس « ومن أصوافها واوبارها وأشعارها اثاثا ومتاعا الى حين » (*) . ومنها البانـه وغذاؤه . . فاذا كان هنالك شيء يفتتح به الحديث مع العربى يوم ذاك فهو الابل ، ينتقل بها من مكان الى مكان ، وهو فى انتقاله فى تيه الصحراء لا يعصمه من التيه فيها الا النجم القطبى فى السماء أو لا يرحل لـرعى ، أو يعود بأغنامه الا طبقا لتأملاته فى النجوم والأفق ، اتسـدل النجوم على الأمطار ؟ . . . انه يتحرك فى الاتجاه الذى يعرفه من دلالات النجوم ومواقعها « وبالنجم هم يهتدون » (٧٢) ، ثم تأتى فى المرحلة الثالثة وهى هذه البيئة التى يعيش فيها وهى الأرض ، واقرب شيء منها الى قلبه تلك الجبال . . فقدم الله ذكرها لأنها البيئة الخاصة على الأرض وهى المسكن العام . . والقرآن يخاطب النفوس ولهذا مضى على الترتيب الطبـعى للأشياء فى نفس المخاطب .

ان الذى يمتطى الجمل أو يرى راكبه يستشعر فى ارتفاع سنام انجـمل ، وراكبه فوقه ذلك الاتجاه الى السماء ، وهذا اول ما يتبادر الى الذهن ، ثم ترتد هذه التصورات الى ما هو اقرب الى السماء واكثر ارتفاعا ، فذكر الجبال بعدها . . فضلا عن ان ذكر الجبال العالية يستنبع التساؤل عما تستقر عليه وهو الأرض ، وربما كان البدء بالاستدلال على عظمة الخالق بالجمل . . لأن فيه من مظاهر عظمة الخالق ورحمته معا ما هو أكثر وضوحا . فهو الحيوان الوحيد الذى اذا مشى ينقل يديه ورجليه دون ان يثنى ركبته . . وهكذا كان القرآن فى ترتيب آياته وكلماته وسوره آية فى الروعة لمن كان له قلب ، أو تذوق فنى وبلاغى .

* * *

٢ - الالهة واثيان البيوت :

ويقول المستشرقون فى قوله تعالى : « يسألونك عن الالهة ، قل هى

مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، واتوا البيوت من ابوابها ، واتقوا الله نعلكم تفلحون» (٧٣) .
قالوا : اى رابط بين أحكام الأهله وبين حكم اتيان البيوت من ابوبها ؟
وهذا اعتراض الجاهلين بأسباب النزول ، فالآية نزلت فى اجابة عن سؤالين :

الأول : هو ما يروى عن بعض الصحابة قالوا : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لا يكون على حالة واحدة كالشمس ؟ فنزلت الآية « يسألونك عن الأهله ، قل هى مواقيت للناس والحج » اى انها هكذا لتعرفكم أوقات العبادات : الصلاة والصوم والحج .

الثانى : روى أن الانصار كانوا اذا أحرم الرجل منهم فى الجاهلية لم يدخل بيتا من بابيه ، بل كان يدخل من نقب فى ظهره . أو يتخذ سلما يصعد فيه ، فنزل قوله تعالى : « وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها » .

ووجه التناسب واضح بين الكلمات فانه لما ذكر مواقيت الحج تناسب ان يذكر بعض أحكام الحج ، ويبين الصواب فى حكم دخول الحاج بيتا من البيوت . . وان المشركين حرموا على انفسهم ما احله الله .

٣ - غش النصيحة وخيانة الأمانة :

وفى النساء يقول الله سبحانه : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (٧٤) .

(٧٣) البقرة : ١٨٩ .

(٧٤) الجبت والطاغوت : الأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الله والطاغوت فى أصل اللغة مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فهو كل ما يطغى الانسان ويضله عن طريق الحق والهدى « ان الانسان ليطغى . ان رآه استغنى » (العلق : ٦ ، ٧) - والآية من سورة النساء : ٥١ .

نزلت هذه الآية وما بعدها في « كعب بن الأشرف اليهودي » حين قدم الى مكة وشاهد أهلها بعد بدر - وقد هزتهم الكارثة .. أهذه القلة التي مع محمد (ﷺ) تنتصر ذلك الانتصار الرائع المروع على جيش مكة وكان ثلاثة أمثال المسلمين ؟ . أهذه القلة انتصرت لأنها على الحق وقريش على انباطل ؟ . ان الضربات القاسية قد تنزل بالشعب أو الجماعة أو الفرد لتجعله يفيء الى نفسه يسائلها ويحاسبها ويراجعها ، فمن يشأ الله له الهدى اتضح له الطريق ، ومن شاء له الضلالة أخذته العزة بالاثم ، أو أوحى اليه أمثاله من الضالين الذين لم يمسه ما مسه فزينوا له سوء عمله وعقيدته .. وهكذا في بدر كان من البعض مراجعة وتساؤل .. فسألوا « كعب بن الأشرف اليهودي » حين وجدوه بينهم يواسيهم ويحرضهم على الأخذ بثأرهم وغزو النبي ﷺ مرة أخرى وقالوا له : أينما أهدى سبيلا ، نحن أم محمد ؟ فقال لهم : بل أنتم أهدى سبيلا .. فنزلت الآيات التي أولها ما ذكرناه « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » الآية .. ثم بعد بيان جزائهم كانت الآية الكريمة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٧٥) .

وقد نزلت هذه الآية - كما يقول المفسرون - في شأن عثمان بن طلحة العبدري ، حاجب الكعبة ، لما أخذ منه الرسول مفتاح الكعبة يوم فتح مكة ثم رده عليه . وكان هذا في العام الثامن للهجرة .

قال بعض المستشرقين : لقد كان بين الآيات التي نزلت في كعب بن الأشرف ، وبين آية « الأمانات والحكم بالعدل » ست سنوات .. وعابوا ذلك (٧٦) .

والمواقع أن الترابط بين الآيات قوى ، فانه سبحانه وتعالى لما ذكر حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعدّه لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين الى طريق

(٧٥) النساء : ٥٨

(٧٦) القرآن والمستشرقون ، ص ٧٠ - ٧١ .

السعادة بطاعة الله ورسوله ، وإداء الأمانات والحكم بالعدل بين
الناس (٧٧) .

ثم ان ما فعله كعب بن الأشرف من قول الزور ، فقد استنصحه
المشركون فلم يكن أمينا ، وحكموه فيما بينهم وبين النبي محمد عليه
الصلاة والسلام فلم يحكم بالعدل . وهذا هو وجه الارتباط الطبعي بين
الآية التى سجلت عليه موقفه غير الأمين وغير العادل . وبين آية
الأمانات والحكم بالعدل . لا ينكر هذا الا حقوق او غبى .

* * *

٤ - الأخبار الاعتراضية :

ان ابلغ اساليب الاعلان - فى فن الاعلان الحديث - هو ان يقطع
الحديث الاذاعى او التلفازى ليعلن عن سلعة او مزاد بيع - ثم تكمل
نشرة الأخبار السياسية بعد الاعلان ، فهذا مما يجعل المعلن عنه أكثر
رسوخا فى الذهن ، مما لو كان الاعلان فى نشرة الاعلانات .
وهذا ما لم يدركه « لامانس » ، فأخذ يتساءل عن وجه الترابط
بين الايات الواردة فى قوله تعالى لنبيه « لا تحرك به لسانك لتعجل به .
ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه » (٧٨)
وبين باقى آيات سورة القيامة التى تتناول موضوع يوم القيامة قبلها
وبعدها .

ففى ثانيا مشاهد القيامة فى السورة تعترض هذه الايات الأربع
تحتوى توجيهها خاصا للرسول ﷺ ، وتعلينا له فى شأن تلقى هذا القرآن ،
ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها ، اذ كان
الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى اليه ، فكان حرصه على
التحرز من النسيان يدفعه الى استذكار الوحي فقرة فقرة فى اثناء تلقيه ،
وتحريك لسانه به ، ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم « لا تحرك
به لسانك لتعجل به » الخ ، ليطمئنه الى أن أمر هذا الوحي وحفظ هذا

(٧٧) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ٢٨٣/١

(٧٨) القيامة : ١٦ - ١٩ .

القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول الى صاحبه ، ودوره ﷺ
 انما هو التلقى والبلاغ ، فليطمئن بالا ، وليتلق الوحي كاملا ، فيجده
 فى صدره منقوشا ثابتا . . وهكذا كان . . فأما هذا التعليم فقد ثبت فى
 موضعه حيث نزل ، اليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض
 كان ، ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب
 شأنها شأن بقية الكتاب ودلالة اثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من
 السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله
 فى أى اتجاه ، وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله انتى أوحى
 بها الى الرسول ﷺ لم يخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة ، فهو
 الحق والصدق والتحرر والوقار

وبالاضافة الى هذا ، فان الایحاء الذى تتركه فى النفس هذه الآيات
 هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن ، وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ،
 واسناده اليه سبحانه وتعالى بكليته ، ليس للرسول ﷺ من أمره الا حملة
 وتبليغه ، ثم لهفة الرسول ﷺ وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى اليه ،
 وأخذه مأخذ الجد الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ،
 مما كان يدعو الى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية ، وكلمة
 كلمة ، يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد ،
 وتسجيل هذا الحادث فى القرآن المتلو له قيمته فى تعميق هذه الایحاءات
 التى ذكرناها (٧٩) .

وفضلا عن هذا كله فان القرآن لما كان كتاب البعث للنفوس
 والمجتمعات الميتة يحييها الله به « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا
 يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (٨٠) ،
 كان وضعه وسط أخبار بعث الموتى من القبور يوم القيامة بمثابة واسطة
 العقد ، يجمعها مع باقى العقد معنى واحد ، هو هنا معنى البعث والاحياء
 للموتى - موتى الأجسام وموتى الروح والقلوب - وتنفرد واسطة العقد

(٧٩) فى ظلال القرآن : ص ٣٧٦٧ ، ٣٧٧٠ ط . الشروق .

(٨٠) الأنعام : ١٢٢ .

بامتياز آخر له قيمة أعلى وأعلى ، لاختلاف جوهرها وامتيازه ، وهذا هو ما يتمثل في سمو حياة الروح والقلب على حياة الجسد « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٨١) ، وهذه اشارات تشرق بها القلوب المؤمنة ، وتغرب عن المستشرقين ، « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (٨٢) .

* * *

شبهات المستر فرانك فوستر

● تعريف بـ « فوستر » :

المستر فرانك فوستر كاتب أمريكي ألف كتابه « تاريخ حياة محمد » ، وقد عرض وجهة نظره تحمل طابع الشخص الذى يكتب عن خصم لدينه . فلا يعبا بالحق وانما يلقى الكلام على عواهنه (❖) وبالرغم من انه يشترك مع غيره فى الشبهات غير اننا افردناه بالذكر لانه يعرض هذه الشبهات بأدلة خاصة أو فى قالب خاص به فآثرنا نقل شبهاته والرد عليها بايجاز تاركين التفصيل الى الجزء الثانى عند الرد على « سفارى » واليك هذه النقاط وراينا فيها :

١ - تاريخ المولد النبوى :

قال فوستر : « قبل ألف وخمسمائة سنة ظهر فى مكة رجل اسمه محمد ادعى النبوة ، وخطب الناس فى المسجد فأنكروا عليه قوله » . والقارىء يرى فى قائلته هذه مدى استخفاف المستشرقين بالحقائق التاريخية وافتقارهم الأمانة العلمية . فالكاتب بل نحن الآن فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى . وهو يقول عن بعثة الرسول ﷺ انها كانت قبل (١٥٠٠ سنة) ، ويقول : انه خطب الناس فى المسجد ، ولم يكن هنالك خطبة . بل كانت الكعبة قائمة وحولها فراغ . ولم بين المسجد الحرام حول الكعبة الا فى الاسلام .

٢ - انكار أن النبى أمى :

قال فى (ص ٣٥٢) « لم يكن محمد أميا ، لانه كان فى حاجة الى ان يكرر قراءة كتابه احيانا ليستظهره ويستوثق من حفظه » .

والجواب :

ان القراءة والكتابة لا تعطى المستشرقين حاجتهم من الايحاء بأن

محمدا ﷺ قارئ كاتب الف كتابه ، لأن عيسى وموسى كانا يقرآن ولم يكذبهما أحد فى دعواهما تلقى التوراة والانجيل من السماء .. وهذا هو بيت القصيد من ترويج المستشرقين القول بأن محمدا ﷺ كان قارئاً كاتباً .. أما دعوى « فوستر » فباطلة ، لأن الحفظ لا يحتاج الى أن يكون النبى كاتباً ما دام للنبى كتاب يكتبون له القرآن فور نزوله يسمون فى التاريخ « كتاب الوحي » . وما دام الوحي ينزل عليه يصحح له القرآن ويقدم له التفسيرات والتوضيحات اللازمة .

٣ - ابتكار النثر الأدبى :

زعم فوستر « ان تأثير القرآن فى العرب راجع الى ابتكار محمد ﷺ لفن النثر الأدبى الذى صاغ به القرآن » .

ونجيب : بأن النثر الأدبى كان موجوداً قبله بقرون ، ولكن الفرق بينه وبين أسلوب القرآن هو الفرق بين الأمر الممكن والأمر المعجز . فاعجاز القرآن الدال على أنه لا يمكن الا أن يكون وحياً من عند الله هو الذى فرض على الأحرار من العرب أن يؤمنوا به .

٤ - انكار الجن :

اتهم فوستر القرآن والرسول بالتخريف لذكرهما الجن . ونحن لم نر الجن .

والجواب :

ان جهلنا بالشئ ليس دليلاً على عدم وجوده ، بدليل ما يكشف عنه العلم يومياً من الأمور المجهولة . ثم اننا ليس لدينا دليل على أن العالم ليس فيه الا العوالم التى تقع تحت الحس مباشرة . فانكار الأمور الغيبية لمجرد عجزنا عن معرفتها خرق وحمق .

٥ - هل كان النبي مشركا قبل الاسلام ؟

هكذا زعم فوستر . وزعم أن النبي تعلم التوحيد من أهل الكتاب !

الجواب :

دعوى أن محمدا ﷺ كان مشركا في الجاهلية دعوى بلا دليل إلا الظن . وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، والمعروف عند المؤرخين الذين رووا التاريخ بأسانيدهم عن مخالطة الرسول ﷺ أنهم قالوا : أن النبي لم يسجد لوثن قط ، ولم يشرب الخمر ، ولم يكن عابثا كآقرانه ولداته (٨٣) قبل البعثة .

وأما دعوى أنه تعلم التوحيد من الكتابيين (٨٤) فبطلانها ظاهر . لأن التوحيد هو الفطرة وهو الأصل ، والتعدد هو الخارج عن الأصل ، والزائد عليه ، وما كان مركزا في الفطرة لا يحتاج إلى التلقين والتعليم ، وإنما يحتاج إلى تعلم التثليث والوثنية . كما في الحديث « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٨٥) ، وهى قضية قررها علم الاجتماع وعلم النفس . كما أن التوحيد هو دين إبراهيم وكان الحنفاء (٨٦) يذهبون إليه ولم يعرف نصارى العرب التوحيد حتى يقول فوستر أن محمدا ﷺ أخذه عنهم ، ففاقد الشيء لا يعطيه .



٦ - هل فقد النبي صفات النبوة ؟

قال فوستر : « أن قوم محمد كذبوه لأنهم لم يجدوا فيه صفات النبوة » .

الجواب :

ذكر الكاتب نفسه في تاريخه من صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان مثالا عاليا في البر والرحمة والثبات والصبر وقوة الاحتمال ،

(٨٣) أمثاله في السن .

(٨٤) المراد بالكتابيين أو أهل الكتاب : النصارى واليهود .

(٨٥) يجعلانه مجوسيا ، والمجوسية دين قديم .

(٨٦) الحنفاء قوم يبحثون عن الدين الحق قبيل مبعث محمد ﷺ .

مع التواضع والقدرة على الانسلاخ من سلطة البيئة والهوى .. وهذه كلها صفات النبوة ، فالكذابون لا يصدر عنهم الا مبادئ ساقطة من جنس ما جبلت عليه نفوسهم (٨٧) ، وقد اتى النبی باكمل المبادئ الخلقية ، واحتمل في سبيلها كل ضروب (٨٨) الأذى التى لا يمكن ان يحتملها انسان ذو اغراض قريبة المنال .

* * *

٧ - هل محمد ذو مبادئ اباحية حين يعدد الزوجات ؟

هكذا قال فوستر ، ويكذبه ان محمدا ﷺ لم يترك للناس احرارا فيما يفعلون ويجترحون (٨٩) من الشهوات حتى يقال : انه ذو مبادئ اباحية ، وانما جاء برسالة قيدت الناس فى اشباع الشهوات . فحرمت الخمور بكافة انواعها . وحرمت الزنا بكل صوره وسدت الذرائع اليه (٩٠) ، وقيدت عدد الزوجات الذى كان مباحا اباحه مطلقة حتى كان الرجل يتزوج عشرات ..

ومن عجب : ان موسى عليه السلام كانت شريعته تبيح تعدد الزوجات فلا يعيبه المستشرقون ، بينما يضيقون بمحمد ﷺ وبدينه ، وهو موسى وكتابهما من مشكاة واحدة (٩١) ، وقد اعترف شوبنهاور بفضل العقد الشرعى الاسلامى لأكثر من زوجة ، واضطرت فرنسا لاصدار قانون ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ بفرض نفقة شرعية للولد غير الشرعى ، وصدرت قوانين العلاقات الواقعية ، او « زواج الواقع » او « الخدانه » (٩٢) ، وأصدر رينيه رودير كتابه « زواج الواقع امام القانون الفرنسى » ونشر عام ١٩٦٠ وهو من اعمال جمعية هنرى كابيتان ويدل على انساء التى تنشأ عن تقييد الزواج .

-
- | | |
|--|------------------------|
| (٨٧) طبعت . | (٨٨) صنوف . |
| (٨٩) يقتطفون ويفعلون . | (٩٠) الأسباب المؤدية . |
| (٩١) مصدر واحد ، وأصل المشكاة الكوة التى لا منفذ لها . | |
| (٩٢) الصداقة والمعاشرة الزوجية بدون زواج . | |

ويعترف الرحالة الغربيون بأن تعدد الزوجات بين المسلمين من الوجهة العملية أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة . وليس هذا بغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم .

وقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينزبرج » و « سترمارك » ، أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتمدنية في حين كان النظام المتبع عند الشعوب المتخلفة هو نظام الزوجة الواحدة ، ويرجع الاختصار على زوجة واحدة فيها الى تقاليد لا تتصل بالدين .

وقد قالت السيدة « غوردون » الانجليزية : انها بملاحظتها احوال البلاد الشرقية التي يتعدد فيها الزوجات رأت أن هذا التعدد أكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن في تحصيل الرزق والأخذ بأسباب العيش ، وهذه ضرورة كبرى يخول معها تعدد الزوجات . وهذا هو ما لاحظته جميع الرحالة الغربيين مثل « جيرالدي نيرفال » و « الليدي موجان » .

وقد أثبت علم الاحصاء أن النساء غالباً أكثر عدداً من الرجال مما يقتضى أن يكون لكل رجل أكثر من زوجة . وبما أنه ليس كل رجل قادراً على الزواج . والقادر على الزواج قد لا يستطيع الزواج بأكثر من واحدة فإن إباحة التعدد للقادر عليه ضرورة تفرضها العدالة الاجتماعية حتى لا تحرم المرأة من حقها في الاستمتاع بالحياة .

(أ) ففي الحروب يكون القتلى من الرجال أكثر من النساء
بنسبة ١ : ٤ .

(ب) وحوادث المصانع والصراع على الرزق يكون ضحاياها من الرجال أكثر من النساء .

(ج) وأمراض الطفولة يموت بسببها ذكور أكثر من الاناث في المرحلة ما بين ساعة الميلاد وأوائل مراحل الشباب فتزيد بهذا نسبة الاناث على نسبة الذكور ١ % .

(د) وقد نشرت «المختار» فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ مقالا للأستاذ « سيليج جرينبرج » جاء فيه : « ان مكتب التعداد بالولايات المتحدة يتنبأ بأن النساء سيرتفع عددهن فى أمريكا بمعدل مليون كل عشر سنوات ، وان الدكتورة « ماريون لانجر » العاملة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : ان لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد فى الرجال : اما تعدد الزوجات . أو ايجاد طريقة ما لاطالة اعمار الرجال . هذا فضلا عن أن الزوجة قد تصاب بأمراض تجعلها غير مرضية عند زوجها كأن لا تنجب أو لا تطيق الزواج أو تصير شوهاء . فطلاقها للزواج بأخرى يضرها (٩٣) . وقد تسوء المعاشرة لأسباب نفسية أو خلقية أو اقتصادية فيكون الزواج بأخرى وسيلة لاستصلاح الأولى .

والذى يتأمل تعدد الزوجات فى حياة النبى يفاجأ بأنه عليه الصلاة والسلام كان ذا زوجة واحدة فى حياته الأولى حتى الرابعة والخمسين من عمره ، ثم اخذ يعدد الزوجات فى الفترة ما بين السنة الثالثة للهجرة والثامنة . وهى الفترة التى تواصلت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين . وفيها اختل التوازن العددي بين الذكور والاناث فى مجتمع المسلمين بالمدينة . وأصبح من الواجب رعاية الأرامل واليتامى الذين فقدوا عائلتهم . فالتعدد اذن واجب اجتماعى على الرجال يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا تجدنه كالأرامل والمطلقات .

والعجيب ان انكار تعدد الزوجات والدعوة الى تفضيل العزوبة والتخلص من تبعات الزواج اكتفاء بالمتعة الخبيثة - التى وفرتها مدنية العصر - قد تآثر بها المجتمع المسلم فى ظل دعاية الاحتلال وحكمه لمصر - دون المجتمع المسيحى فى مصر . اذ تدل الاحصائيات على أن نسبة المتزوجات من النساء المسلمات فى مصر قد هبطت من ٩١٥ فى الألف سنة ١٩٠٧ الى ٨٨٥ فى الألف عام ١٩٢٧ بينما ارتفعت نسبة المتزوجات من النساء المسيحيات من ٨٩٤ فى الألف عام ١٩٠٧ الى ٩٠٥ فى الألف عام ١٩٢٧ . وكانت النتيجة ان هبطت نسبة المسلمين من السكان من

(٩٣) يضير : يضر .

١٩١٨٪ فى سنة ١٩٠٧ الى ٩١٢٪ فى سنة ١٩٢٧ . وفى سنة ١٩٧٢ عقد البابا الأنبا شنودة مجتمعا بمصر وإصدر منشورا بقرارات المجتمع وقد جاء فيه أن المسيحيين بمصر قد تضاعف عددهم فبلغوا ثمانية ملايين وهذا يقتضى أن يكون تمثيلهم فى الوزارة بثمانية وزراء تبعا لنسبتهم العددية طبقا لوصايا الكنيسة بكثرة الانجاب وتشجيع الزواج وترك العزوبة خلافا لسياستهم فى ترويج الدعوة الى تحديد النسل بين المسلمين والدعوة الى منع تعدد الزوجات . بينما نسبة المسيحيين الى المسلمين فى الواقع ٦٠٪ وانما هى اشاعة كاذبة بكثرة عددهم .

وقد أصبح التخلص من الرهينة فى المسيحية والدعوة الى اباحة رواج القساوسة بل والرهبان أمرا صكت قوة الدعوة اليه الاذان ، بناء على أن المصلحة الاجتماعية والسياسية للكنيسة هى فى التكاثر والثروة البشرية . وعلى أن الانجيل ليس فيه نص صريح على تحريم أو كراهية الزواج أو التعدد .

● ماذا ينجم (٩٤) عن تحريم تعدد الزوجات ؟

تندفع المرأة التى لا زوج لها - لاستحالة وجود زوج واحد لكل امرأة النساء بسبب كثرتهم - الى الدعارة . وستتفشى ظاهرة العوانس (٩٥) بين النساء فى المجتمع مع ما يصحب هذه الظاهرة من عقد نفسية تنجم عنها اخطار اجتماعية جمة (٩٦) .

* * *

٨ - التلقى عن الكتابيين :

قال مستر فوستر : «ان محمدا قد تلقف دينه من افواه الكتابيين الذين كانوا فى الجزيرة ، وهو لم يقابل الا السذج الاميين من اليهود والنصارى فلم يحصل منهم الا ما هم اهل للافضاء به من الاوهام حتى عجزوا عن تفهيمه حقيقة المسيحية » .

(٩٤) ينجم : ينشأ .

(٩٥) العانس : الفتاة التى لم تتزوج حتى امست عجوزا .

(٩٦) كثيرة .

الجواب :

ان النجاح العظيم للنبي ﷺ لا يتصور ان يكون قائما على تصيد معلومات ناقصة وخرافية من عوام الكتابيين . والا فقد ادعى النبوة آخرون افتضح أمر كذبهم ، وبعضهم كان يجمع الى ادق ضروب الختل (٩٧) ثقافة علمية عالية .

ثم ان نجاح الدعوات الدينية لا يكفى للوصول اليه اقامة الدليل القاطع على حقائقها فحسب ، ولكن يجب أن يصحب هذا سمو خلقى عظيم وتأثير روحانى كبير . وهكذا كان لمحمد ﷺ النصيب الاوفى من السمو والتأثير . والله لا يؤيد بالنجاح متنبئا (٩٨) كذابا والا بطلت حجته - سبحانه - على عباده الذين يخالفون تعاليمه .

على ان التوراة والانجيل لما يكونا منشورين بحيث يستطيع عامة اليهود والنصارى ان يحفظوا منهما شيئا . فان أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أى بعد موت محمد ﷺ بما يقرب من ثلاثة قرون . بينما أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين كما قال بودلى . ثم قال : وما روى عن أن ورقة ابن نوفل كان لديه ترجمة للتوراة لا يكفى لاقامة شبهة تلقى محمد ﷺ عنها شيئا . لأن ورقة توفى قبل أن يبدأ محمد عليه الصلاة والسلام فى تدوين ما أوحى به جبريل اليه ..

... ثم اننا الآن بعد عصر الطباعة لا نرى النصارى واليهود يحفظون شيئا من كتابهم المقدس لأن أسلوبه لا يستساغ حفظه .

* * *

٩ - التكرار والاقناع :

قال فى كتابه « تاريخ حياة محمد » : ان سورة التكاثر لا مفهوم لها ، وفيها تكرار يستعين به محمد على الاقناع لفقده الحجة المنطقية . وهكذا الأمر فى قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ،

(٩٧) الختل والختلان : الخداع .

(٩٨) مدعى النبوة .

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم اضل ، أولئك هم الغافلون «(٩٩) .

وشبهة الكاتب تدل على جهله بطبيعة أساليب اللغة العربية وبعلم النفس أيضا ، وعن جهله أسباب نزول القرآن . فقد نزلت سورة التكاثر للرد على بنى عبد مناف وبنى سهم حين تباهوا بالكثرة ، فذهبوا الى المفابر يذكرون مفاخر من ماتوا ودفنوا بها من كبار القوم ، كما يذكرون مفاخر الكثرة الباقية فى عالم الأحياء ، فنزلت الآية « الهالك التكاثر . حتى زرتهم المقابر »(١٠٠) ثم ذكر المصير الذى يجب أن يهتموا به ، وهو الوقاية من النار بالتحرز عن الأسباب التى تؤدى اليها ، والقيام بواجب الشكر لله على آلائه ونعيمه ونعمه التى تفضل بها عليهم فقال : « كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين . ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم »(١٠١) .

وتكرار « كلا سوف تعلمون » للتهويل والتأكيد ، فله دلالة نفسية وانعوية(١٠٢) .

وأما قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس »(١٠٣) الآية ، فغاية فى القوة وحسن الأداء ، فهى تهديد يوقظ الله به الانسانية المتحجرة فى حنايا صدور السامعين ، ويخاصة العرب الدين يرهبون الجن ، ويرهبون الكثرة المتكاثرة من الناس ، فلينزل الرهبة من الله فى قلوب البدو والحضر معا . ذكر قهره سبحانه لمن هم موضع رهبتهم فقال : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس » فان القادر على الأخذ بنواصى كثير من الجن والكثرة من الناس قادر على من دونهم . وبهذا المنطق يقدم الدليل الحسى والعقلى والوجدانى لمن تحدثه نفسه بمعصية الله - على أنه مأخوذ بقهر الله .

- (٩٩) يفقه : يفهم ويعى ، والأنعام : حيوان البقر والابل والغنم -
والآية من سورة الأعراف : ١٧٩ .
(١٠٠) التكاثر : ١ ، ٢ . (١٠١) التكاثر : ٣ - ٨ .
(١٠٢) انظر مقال القاسمى فى التكرار بهذا الكتاب .
(١٠٣) الأعراف : ١٧٩ .

محمد خاتم المرسلين

● انكار ان النبى خاتم المرسلين :

انكر بعض المستشرقين ان سيدنا محمدا ﷺ خاتم المرسلين وفسروا قوله تعالى : « ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١٠٤) بأن الخاتم تعبير مجازى يراد به الحلية فهو أفضلهم وليس آخرهم . وقد أجاب عن هذا العلامة « خ . كمال الدين » فى الفصل الثانى من كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » فقال ما خلاصته :

١ - الانسان مركب من جسم وروح . وقد تكفل الله تعالى بغذاء الأرواح كما تكفل بغذاء الأبدان . واذا كان الخالق جل وعلا لم يفرق بين الناس فى توزيع الأرزاق التى تتطلبها الأبدان . فهل يعتل أن يفرق فى الأرزاق التى تتطلبها الأرواح ؟ واذا كانت دعوة عيسى عليه السلام لم تصل الى اقطار العالم الأربعة . فهل يتصور العقل أن الله تعالى الذى يرزق الناس جميعا يرضن بالغذاء الروحى على ملايين البشر الذين لم تبلغهم دعوة المسيح ؟ كلا . بل المعقول انه جلت حكمته ، يرسل رسلا آخرين ليبلغوا رسالاته للناس ، فبعث محمدا ﷺ وحفظ كتابه من التحريف حتى أصبح فى امكان كل طالب ان يجده مشروحا مفسرا مشفوعا بالصور التطبيقية له من اعمال الرسول وصحابته .

٢ - كل ما وصل للناس عن المرسلين انما كان ينتقل بطريق الأفواه وانسماخ ، مما أفسح المجال للتحريف والتبديل فيها ، وكانت النتيجة أن الاجيال المتتابعة تلقت دينا جديدا يختلف كل الاختلاف عما جاء به الرسل ، وأستطيع أن اقرر أن المسيحية بالذات دين يختلف عما جاء به عيسى عليه السلام . وقد أدى النزر اليسير الذى دونه أصحاب الرسل الى مشكلة أخرى . وهى أن الديانات القديمة أصبحت لا تفى بمطالب الزمن . مما اضطر الناس الى الاجتهاد فى كثير من الشئون الحيوية ،

ولعل الدين المسيحى خير شاهد على هذه القضية . فاننا اذا صرفنا النظر عن الجانب الغامض من العقائد التى لا يقرها العقل فى هذا الدين ، ألفينا (١٠٥) أن المواعظ التى تنسب الى عيسى عليه السلام وأقواله الأخرى ، لا تفى بالغرض ، ولا تشفى الغليل ، وخلاصة ما أثر عنه - حسبما دونه أصحابه - أن المسيحية دين يقوم على المحبة والشفقة . وعلى مبادئ مثالية لا يمكن تطبيقها من الناحية العملية . وليس هذا كل ما فى الأمر كما يقول « أرنولد بنت » - بحق ، فمبادئ المسيحية لا تناسب الا حياة الرهبان الذين يعيشون بمعزل عن الناس ، ولا تتفق مع مقتضيات الحياة الاجتماعية والوطنية والدولية . وفوق ذلك يوجد ضرب من التناقض بين الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام كالتناقض النصارى فى استعمال السيف ، وما سجل من أفعاله التى لا تبين المراد من أقواله . وأساس العلة فى ذلك كله أن تلاميذه وغيرهم من معاصريه لم يدونوا لنا سيرته كاملة ، وما حدث فى حق عيسى عليه السلام حدث فى حق غيره من الأنبياء ، اذا استثنينا محمدا عليه الصلاة والسلام الذى - دون مغالة - أعرفه من سيرته المفصلة أكثر مما أعرف أبوى فسجل أقواله وأفعاله كامل غير منقوص . وسنته القولية والفعلية يتمم بعضها بعضا ، وكأن كل مطلب من المطالب الروحية قد قدر وعمل حسابه . ولا يسعنا ازاء قلة ما أثر عن الأنبياء الا أن نقول : انه لولا محمد ﷺ ما استطعنا أن نفهم قدر النبوة . اذ لو كانت وظيفة النبو مقصورة على القول دون العمل . . لما كان هناك معنى للرسالة الالهية ، لأننا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس نفسها ممن لم يدع أنه مرسل من عند الله ، فالأقوال اذا لم تقرن بالأفعال لا يمكن أن تكون باعثا على الهداية » .

أقول : وما قاله كمال الدين حق ، غير أننا لا نسلم له القول بأننا كنا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس الموحى بها من السماء من غير المسلمين .

٣ - كما أن عيسى عليه السلام - آخر أنبياء بنى اسرائيل - ولم تهتأ له الأسباب لظهور مقتضيات الاخلاق جميعا كما تهتأت للنبي ﷺ .

فالمسيح لم يتزوج حتى نفتدى به فى حياتنا الزوجية . ولم يتول سياسة البشر وحكم الناس حتى نتأسى به فى هذا . فكان محمد رسول الله هو النموذج المتكامل الذى يحتاج اليه البشر . وكان القرآن الكريم بياناً وافياً يحتوى على ما يفى مطالب البشرية الخلقية والروحية فنزول وحى جديد - بعد محمد ﷺ - والحالة هذه - يعد ضرباً من التكرار والعبث .

٤ - وأخيراً ان الدين يأتى ليمهد الطريق أمام الانسان للترقى من البشرية الى عالم القدس . والسمو من مرتبة الحيوان الى مرتبة الروحانية . وإذا تقرر ذلك سهل علينا أن نفهم نهائياً الوحي الالهى . اذ المعروف أن هناك طرقاً عدة بين المرتبتين ، منها ما هو طويل ، ومنها ما هو معوج . ولكن لا شك أن منها ما يعد أقصرها جميعاً . ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين . وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على الدين الذى جاء به « الصراط المستقيم » ومعناه الحرفى : الطريق المستقيم .

فاذن : علم أن الطريق الذى يرسمه الوحي الالهى لهداية البشر لا بد أن يكون أقصر الطرق ، وأن الطريق المستقيم لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل منه .

أقول : اذا علم ذلك : كان القول بأن نبيا ما ... بعثه الله صراطاً مستقيماً قضية يؤيدها العقل ، ومن ثم تكون شريعة هذا النبى هى آخر الشرائع . فأنت ترى أن المسألة كلها انما تدور حول اعتبار واحد . وهو هل الطريق الذى يدعو اليه هذا النبى هو الطريق المستقيم ؟ وهذا يتضمن التسليم بأنه آخر الانبياء . وفى هذا أستطيع أن أقول - وأنا مطمئن - : ان محمداً ﷺ هو آخر الانبياء ، وهو يقف فى المقدمة . يشرف بنظره على كل القرون ، وهو نبى الزمان كله ، ونبى كافة الشعوب على اختلاف درجاتها ثقافة وعلماً . واكبر دليل على ذلك أن العالم الآن مقبل على الأخذ بالمبادئ الحقبة التى نادى بها فى زمانه . فلتقل الدكتور « بيزانت » ما شئت أن تقول به ، من أن الوقت قد حان لظهور « نجم الشرق » . فان انبياء الشرق لم يكونوا عالة قط على من سواهم فى الأمور الدينية ،

ولم يكونوا قط تحت وصاية غيرهم فى التربية الدينية . فهل للدكتورة « بيزانت » أن تدلنا على بعض الحقائق الجديدة التى سيأتى بها الذى هو فى حماها مما لم يأت به الأوائل ؟ ..

٥ - ولقد كان غرض الديانات السابقة على الاسلام هو تخليص البشر من الخطيئة واسترضاء الله بالقرايين البشرية وغيرها ، أو بالوسطاء ، ولم يكن عيسى عليه السلام هو ابن الله الوحيد الذى جاء ليغسل بدمه خطايا البشر . وقد حوكم لأنه اتهم باثارة الفتن والقلق فكم من شخص أعدم بهذه التهمة ، فليرفع الدكتور « زويمر » عقيرته ما شاء أن يرفع . زاعما أن المسيحية انفردت بتقديم الدليل على هذا النوع الغريب من الحب الانهى . فانه انما يدل على جهله . وأكبر الظن انه يكتم الحق .. ويعرف ان الوثنية كان فيها عدة ممن زعموهم أبناء الله ، أرسلهم الأب ليقدموا حياتهم فداء للإنسانية . وكان باخوس واحدا منهم ، وهو أول من قال : انه الف العالم وبأوه ، وانه مخلص البشرية ، وقد وضعته أم عذراء فى ٢٥ ديسمبر ، وضحى بحياته فى يوم الجمعة السابق على أحد الفصح ، وقام فى ذلك اليوم المشهود . وقد نقل القديس بولس ، ومن جاء بعده قصة الآلام ، بحذافيرها (١٠٦) عن هؤلاء .

ومن اعجاز القرآن أن كشف عن هذه الحقيقة التاريخية النابتة فقال عن النصرانى : « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، انى يؤفكون » (١٠٧) .

وكان الاعتقاد السائد - خطأ - أن الانسان ولد متلبسا بالخطيئة ، وأن الاله المتجسد هو الذى يكفرها بيديه . فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم قرر : أن الدين لا يقصد الى مجرد انتشار الانسان من الوهدة ، واقلته من العثرة ، وانما يريد به السمو الى الذروة .

ولقد شبع الناس من كباش الفداء تلك . والذى تتقبله عقولهم هو

(١٠٦) بتمامها وأصل الحذفور كعصفور : الجانب

(١٠٧) يحاكون ويشابهون - والآية من سورة التوبة : ٣٠ .

ان يكون ارتقاء الانسان من الحيوانية الى الروحانية هو المبدأ الاسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء ، وقد كانت رسالة محمد ﷺ تفصيلا لوسائل هذا الارتقاء الذى هو خاتمة الغايات النبيلة التى تستهدفها الرسائل وليس وراءها وراء .

وهذا الارتقاء هو التسامى بالنفس الانسانية بضبط الغرائز ، والتخلق بالصفات الكريمة التى وصف الله بها نفسه ودعانا الى التحلى بها نبيه محمد ﷺ بصورة مشرفة ليست كالصورة التى رسمها الله رجال الأديان السابقة ، فليس لها غاضبا قاسيا كاله اليهود ، وليس لها أبله يقتل أفضل أبنائه ليخلص بدمه غيره من أبنائه الأشرار ، وانما الله هو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين .

« واذا صرفنا النظر عن جميع الاعتبارات المتعلقة بعدم صحة الكتب المفسدة ما عدا القرآن ، وأما بأنها صحيحة - لم نجد فيها كبير فائدة .
اذ أنها لا تدلنا على جميع الصفات الالهية التى نفرؤها فى كتاب الكون .
واذا كان القرآن هو الكتاب الزاخر بذكر الله وصفاته ، والدال على كيفية التخلق باخلاقه . أفلا يكون هو الكتاب الوحيد الذى يحقق الغرض من الوحى الالهى » (١٠٨) ويستغنى به عما سواه ؟ ..

ولأول مرة فى التاريخ يلغى الاسلام الوساطة بين العبد وربّه ، لأن الاعتقاد فى الوساطة يضعف الشعور بالمسئولية ، ويقضى على روح الاعتماد على النفس ، وهو اثر من آثار الوثنية لم يخل منه دين سماوى فى أخريات أيامه ، رجاء الاسلام ليخلص البشرية منه « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان » (١٠٩) . « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » (١١٠) . وهذا اعظم مظهر لتحرير البشر من العبودية لغير الله الواحد الأحد .

٦ - الناس يتطلعون الى دين واحد ، وهذا الدين العالمى لا بد أن

(١٠٨) المثل الأعلى فى الأنبياء ، خ . كمال الدين ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١٣٩ .
(١٠٩) البقرة : ١٨٦ .
(١١٠) العنكبوت : ٦٩ .

يتضمن الاجابة عن كل الأسئلة المطروحة فى المسائل المختلف عليها بين كافة الديانات . . والاسلام وحده هو الذى تعرض للاجابة عن كل مشكلة برأى مقنع وحاسم . وخلاف غيره ، فالمسيحية لم يتعرض كتابها المقدس لمشكلة تناسخ الأرواح بكلمة . فهل تصلح مع هذا أن تكون ديانة عالمية ؟ والدين العالمى شرطه العمل على شجب الخلاف حول الرسل ، والاسلام - وحده - هو الذى جاء بهذا « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » (١١١) . والدين العالمى يكفل للمرء حاجته المادية والروحية باعتدال ، والاسلام - دون غيره - هو الذى وفرت مبادئه المبدأ الفارسى القائل : أيديهم فى الدنيا وقلوبهم مع الله (١١٢) .

٧ - وإضاف الأستاذ زكريا هاشم الى ذلك: أن جميع الدعوات والنبوات قبل الاسلام قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الانسانية العامة ، وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

فنبوة بنى اسرائيل لم تنزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة . تنزل بحاضرها وعموم مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقي الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره ، والتكفير عن سيئاته ، والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه . ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ، ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ، ويشترك على سواء بينه وبين أخوانه من البشر فى عبادة اله واحد هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها » .

• (١١١) البقرة : ٢٨٥ .

• (١١٢) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ١٧٦ .

فلما جاءت نبوة التكليف صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوات ،
لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول . وتحضره آيات
الله لقوم يعقلون « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من
ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح
والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (١١٣) .

وان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون - قد اختتم
سلطان الأحبار والقادة ، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق
العادة ، ، والمنجمين الذين كانوا فى مقدمة جيوش بنى اسرائيل كما فى
سفر الأيام الأول ، والعرافين الذين كان قومهم يخبرونهم بمعرفة الغيب
كصموئيل (١١٤) .

« فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله لطبيع السادة المستكبرين ،
او لطبيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين : « قالوا فيم كنتم
قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا
فيها » (١١٥) . . . و « قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم
عن الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين . » (١١٦) .

« فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم ،
أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ،
لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على
المتعلم أن يتبين من يسأل ، وهو مسئول عما يفعل « وما أرسلنا من قبلك
الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (١١٧) .
فاذا سمى ختام النبوة باسم الحق فى تاريخ الانسان ، فاسم الحق انه هو
فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة . قبل عهد الرشد الذى أخرجه
اقرون الوسطى بسبعة قرون .



(١١٣) البقرة : ١٦٤

(١١٤) حقائق الاسلام وابطال خصومه ص ٦٤ ، ٦٦

(١١٥) النساء : ٩٧ (١١٦) سبأ : ٣٢ (١١٧) النحل : ٤٣

● دعوى استمرار النبوات :

ومن عبث الجهالة . أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار في عصر العلم . فلا يفهم منه الا أنه حكر الأثرة يغلقه النبي على من بعده .

ان الحكر - الذى يزعمه خصوم الاسلام كالبهائيين - صنيع لا يصنعه نبي أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقادة بين يديه ، فان جاز فى حقه هذا الحكر المغتصب . فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله ، وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته عليه ؟ (١١٨) .

ان العقل البشرى بلغ تطوره منذ أربعة عشر قرنا . عند مبعث رسول الله ﷺ ، وان تفتح العقلية الأوروبية بأقصى ما أمكن الفلاسفة أن يدركوه الآن ليشير الى أهداف العلم وغاياته فلا تخرج عن المبادئ التى جاء بها محمد ﷺ ، ولهذا كانت رسالته خاتمة الرسالات من وجهين :

الوجه الأول : أنها عامة فى الزمن تغطى حاجته المستقبلية ، اذ أننا لم نجد فى عصرنا خيرا من الاسلام . فكل متنبئ الآن كاذب ، لأنه أعجز عن أن يأتينا بجديد خير مما أتانا به محمد ﷺ أو مثله .

والوجه الثانى : فى أنها كانت طورا لما سبقها من الرسالات يشبه الذروة فكانت خاتمة للرسالات السابقة .

لقد وضع الاسلام اصولا عامة يتجه اليها فلاسفة العالم الآن . وبهذا كان الاسلام هو التعبير عن حاجة الانسانية ، والملتقى العالمى الذى تتجه اليه البشرية دون حاجة الى رسول أو رسالة غير الاسلام ورسوله ، وهذه الأصول كما قال المرحوم محمد فريد وجدى هى :

- ١ - زوال آثار الوراثة الدينية والتحرر العصرى منها .
- ٢ - انحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .
- ٣ - قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

(١١٨) المستشرقون والاسلام لذكريا هاشم ص ١١ - ١٢

- ٤ - قبول كل عقيدة تسلم من النقد ، وتنهض بها حجة .
- ٥ - الميل الى ايجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم والتي تجعل منها شيعا .
- ٦ - الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، دون اعتداد برأى طائفة من الطوائف ، أو فرد من الافراد . . وهذه أمور تنبئ بأن المستقبل للإسلام (١١٩) .

خاتمة

لقد امطنا اللثام في الصفحات السابقة عن أغراض المستشرقين ، واستبان لنا أن الاستشراق عمل صليبي هو الوجه الآخر للحروب الصليبية . . يمكن أن نسميها الحرب النفسية ، لأنها تحمل من أغراض الحرب النفسية تمزيق الوحدة القومية حول مفاهيم يستوى عند العدو أن تكون تافهة أو ذات بال . وتحمل من أغراض الحرب النفسية أيضا تشكيك المسلمين في استمرار قدرة دينهم على مواجهة الحياة الصاعدة الزاحفة الى الامام قدما . ويسلمهم هذا الى استشعارهم النقص والتفاهة والعجز عن مناهضة أعدائهم ، فيقنطون وكما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » ويفقدون الطريق الى المجد « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » (١) .

وقد رادت الكنيسة هذه الحركة لتستبقى بالعلوم الاسلامية الشرقية دماء المسيحية وهي تحتضر .

ولما كان البابا عند المسيحيين ملك جميع الملوك والرؤساء والممالك في معتقدات المسيحيين فقد انصاع الملوك والرؤساء وكافة الساسة لأمره ، واحتضنوا حركة التبشير والاستشراق ، وما كان للملك الا ينصاع ، ومن قبله عرف كافة الملوك كيف وقف زميل لهم بين يدي البابا وقد أزاح عن نفسه الصلف الألماني وتاج الملوك ، واكتسى ثوب المذلة والضراعة ليغفر له البابا الذي غضبت لغضبه رعيته عن بكرة أبيها ، فأمسى عرشه في مهب الرياح . . وبعد تاب وتمنع أمر البابا أن يجثو الملك عاريا الا من ثياب خشنة قدرة من الخيش ، حاسر الرأس لا يغادر فناء الكنيسة الى ظل أو كن ان احمرت الشمس أو اكفهر الأفق أو امطرت السماء أو قسا الزمهرير ، فلما قضى الملك الأجل أذن له البابا أن يشرف بلثم قدميه ويديه . ومع ما للكنيسة من رهبة وسطوة فقد لوحث لهؤلاء بالمكاسب الضخمة

التي سيظفرون بها ويغنمونها من وراء الاستشراق والتبشير .. ان هؤلاء المستشرقين والمبشرين سيكونون العيون لهم في اى بلد حلوا فيه والطابور الخامس . انهم حين يجدون نصارى يؤازرونهم سيهيئونهم لتقبل حماية دول الغرب ويكون شعار « حماية الأقليات » هو الذريعة للغزو المقدس . فان لم يكن للنصارى كيان أو وجود صنع عملاء يقتنصرون .. فان عجزوا صنع عملاء يخدمون باسم الوطنية والتقدم والفكر المتحرر يكونون خلفاء مطيعين . واعوانا للغرب على كبج جماح العامة .

ورغبا ورهبا انصاع الملوك والساسة فكانت هذه الحركات الضخمة التي ازحنا عنها الستار ، وكانت لهم هذه المفتريات التي فضحنا شطرا منها . ولكن بقى أن نتساءل : ائى الافتراء على الاسلام حتى يمكن للمسيحية من أن تترعرع - خدمة للبشرية ، أو قرينة الهية ، أم ان فى هذه المهاجمات للاسلام بل وفى التبشير بالمسيحية مخالفة للمسيحية ذاتها ؟

ان الطغيان الرأسمالى غير المشروع هو الآفة الاجتماعية التي تكمن وراء أبراج الكنيسة المسيحية . ووراء القباب الحصينة التي يتترس بها (٢) الكهنة المسيحيون . ان هؤلاء الذين يحيون وراء الحصون المنيعة التي تضى عليها أسماء شتى كالدير والمدرسة والمجمع والكنيسة والمكتبة ومركز الثقافة وجمعية القديس كذا .. كل هؤلاء انما ينقضون وراء هذه الحصون نعاليم المسيح . بما يغرقون فيه من متع الحياة التي جاء المسيح ليخلص الروح من أوزارها ، ولقد كشفت ثورات التحرير الفرنسية وغيرها عن طبيعة المبادئ التي تناقض الفطرة ، فكانت عظام الأطفال الرضع المقبورة فى جوار جدران الأديرة دليلا ماديا على أن البشر لا يمكن أن تحيلهم الخبرة والعوائم والطيلالس الى ملائكة - دليلا على فساد المثل المسيحى القاتل « الأعزب رجل حالفه الحظ فلم يدهمه قطار الزواج » وعلى فساد فلسفة الرهبنة التي تحرم الزواج .. وعلى صدق الحقيقة الاسلامية التي تتمثل فى حديث محمد عليه الصلاة والسلام : « ما خلا رجل بامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما » وفى قوله « ان من سنتى النكاح ومن

(٢) يتترس : يتحصن ويحتفى .

رغب عن سنتى فليس منى « وقوله « شراركم عزابكم » وكأنه يريد أن يقول : رهبانكم . ولقد قالها فى الصورة المبهضة التى تليق بمقامه الكريم : « لا رهبانية فى الاسلام » .

ان هؤلاء الآباء فى عملهم لنشر المسيحية لا يبتغون وجه الله ولا جنة المأوى ، وانما يريدون باستبقاء الوجود المسيحى أن تبقى لهم الأوقاف والموارد المالية الضخمة التى للكنائس ، فباسم الدين يعيشون على أنقاض الدين . . لم يدعوا ما لقيصر لقيصر . فهم المهيمنون على كل شئون القيصر . . يقدم لهم الولاء والعطاء ليباركوا له ما لعنه المسيح . . ملك الدنيا . . وظغيان المستبد الغاشم والمستعمر المعتدى . . انهم يباركونه ويتمتمون أمام السذج بمقالة الانجيل « لا يدخل فى ملكوت الله غنى » ، ويعلمون أن قيصر الذى باركوه لا يمكن أن يكون مباركا ، لأنه لا يدخل ملكوت الله . وهل هنالك أشقى وأتعس ممن طرد من رحمة الله ؟ ان هؤلاء الآباء يكذبون على قيصر حين يباركونه ، وهو يكذب عليهم حين يقبل أيديهم وأرجلهم ، أو يركع بين أيديهم ويمسح فى حركة تمثيلية أو هستيرية الصليبان المدلاة من أعناقهم ، فيقبلها فى رهبة مزعومة . . لأنه يريد بما يصنعه كسب رضاهم ليكسب معه رضا الدهماء من العامة الذين لا يعرفون عن المسيح والمسيحية شيئا . . الا أنهم ولدوا مسيحيين . ولكنها المصالح المشتركة التى قوامها المال والسيطرة ومتع الحياة جمعت بين الساسة والكنيسة ، فكان الاستشراق والتبشير من أجل تحقيق المصالح المشتركة هذه .

ومما هو جدير بالذكر أن نرى الآن حركة قساوسة العالم الثالث التى تستهدف اقامة اشتراكية امريكية لاتينية وطنية . وهى تضم ٤٠٨ من قساوسة الكاثوليك فى الأرجنتين البالغ عددهم خمسمائة . ويسمى هؤلاء القساوسة : القساوسة الليبراليين (التحرريين) (٣) . اليس هذا خوضا فى سياسة دنيا الناس ، لا رياضة فى ملكوت الروح الذى جاء يدعو اليه السيد المسيح !!

ان المسيح رفض ان يكون غير قومه - وهم الاسرائيليون - فى نطاق المسيحية ، رفض التبشير خارج بنى اسرائيل .. ولكن زور تاريخه ، ورورت عليه ديانتته حتى تخدم اغراض وشهوات ومطامع الآباء والملوك وانرؤساء . بل ان المسيحية طورت لخدمة الدنيا ، لأنها فى طبيعتها لا تصلح لازدهار دنيا ، وانبأت مدنية . فلقد مات المسيح - أو رفع كما هو رأى الجمهور - وماتت أو رفعت معه تعاليمه ، ولذا قال المسيح النواعى المتحرر الفيلسوف « نيتشة » فى سخرية : « ان المسيح الوحيد مات على الصليب » .

ولا أدعك لهذا القول الذى تخاله غريبا فى حيرة ، ولكننى ابادر فأضع يدك على الدليل القاطع لكىلا تحتار ولتعرف كيف ينقض المبشرون قول الانجيل بعملية التبشير .. بل وبإدخال أوروبا فى دين المسيح .. فلقد جاء فى انجيل « متى » الاصحاح ١٥ ما نصه :

« ثم خرج يسوع من هناك . وانصرف الى نواحي صور وصيدا . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم . وصرخت اليه قائلة : ارحمنى ياسيد يا ابن داود . ابنتى مجنونة جدا . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة .. فأتت وسجدت له قائلة : ياسيد ، اعنى . فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب الضالة . فقالت : نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها » ..

ولم يكن فى وسع بولس الرسول واخوانه أن يبشروا بمسيح منتظر بين اليونان والرومان يخلص بنى اسرائيل من شر الرومان الذين قتلوا المسيح ، فلا جرم أن تحولت الدعوة من اسرائيلية خاصة الى رومانية عالمية لهذه الضرورة التى لا محيص عنها ، وأضيف الى انجيل متى اكذوبة : « اذهبوا وعلّموا جميع الأمم » .

ثم هى ضرورة الوثنية فى الامبراطورية دفعت الى استصلاحها بالمسيحية ، فهى مهما تكن كانت خيرا من الوثنية .

فانتشار المسيحية اذن بعد هذا النص الواضح ، والتبشير بها مباشرة كما يفعل المبشرون المستعلنون - أو بأسلوب خفى يأخذ - زيفا وزورا - صورة البحث العلمى كما يفعل المستشرقون ... ليس عملا يحبه المسيح وانما يناقضه ويضاده ، وانما هو اذن عمل لظروف سياسية اغتنتمها الرومان .. ثم جرى مجراهم من وراءهم .. والدعوة الى المسيحية عمل سياسى بحث يناقض طبيعة المسيحية وما جاء فى الانجيل . لأنها دعوة جاءت لاستصلاح اليهود الجشعين فقط - بروحانية حاسمة لتضع ما يشبه رث الفعل للمادية اليهودية الجشعة .

● هل تصلح المسيحية للبشرية الآن ؟

لقد كان للمسيحية عصرها ومجتمعها الخاصان وقد انتهيا .. فبقاؤها لا مفهوم له الا محادة الله والمسيح ، والاضرار بالجماعة البشرية . قال فيلسوف الاجتماع الشهير « جان جاك روسو » وهو مسيحى لحما ودما : « ويقولون لنا . انه اذا وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فانهم يؤلفون مجتمعا هو اكثر المجتمعات التى نتصورها كمالا . وانا لا ارى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة .. وهى ان المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعا بشريا . بل اقول ايضا : ان هذا المجتمع المزعوم لن يكون - رغم كل كماله - اقوى المجتمعات ولا ادومها .. فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاتا . »

ثم قال : « انى اخطىء اذ اتحدث عن جمهورية مسيحية . فالكلمتان متناقضتان .. ان المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة ، وروحها ملائمة اكثر مما ينبغى للطغيان ، ويستغل الطغيان دائما هذه الحقيقة الصالحة : ان المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيدا » (٤) .

وما قاله « روسو » يصدقه الانجيل نفسه اذ يقول ما نصه : « قد سمعتم انه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما نا فاقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل

من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك
ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه
انين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم :
احبوا اعداءكم وباركوا لاعنيكم (متى : الاصحاح السادس) .

ثم قال روسو : « ان المسيحية – بدلا من أن تربط قلوب المواطنين
بالدولة – تبعدها عنها ، باعتبارها من اشياء الدنيا ، ولست أعرف شيئا
أكثر تناقضا مع الروح الاجتماعية من ذلك (٥) .

ان المسيحية دين روحاني تماما لا تشغله سوى أمور السماء وحدها .
فوطن المسيحي ليس في هذا العالم . وصحيح أنه يقوم بواجبه ، ولكنه
يقوم به بعدم اهتمام ، وعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعهد به اليه أو فشله ،
فهو – اذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه – لا يهتم كثيرا أن يسوء الحال أو يحسن
على الأرض ، فاذا ازدهرت الدولة فانه لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة
العامة ، ويخشى أن يفخر بمجد بلاده ، واذا هلكت الدولة يبارك يد الرب
التي ألقى ثقلها على شعبه » .

ثم قال : « ويجب في هذه الحال أن يكون جميع المواطنين
– بلا استثناء – مسيحيين صالحين على السواء ، حتى يسود السلام
المجتمع ، ويعم التوافق . ولكن اذا وجد – لسوء الحظ – رجل واحد
طموح ، مرء واحد ك «أتلينا» مثلا، أو كرومويل، فانه سيجد – بلا ريب –
سوقا رائجة في مواطنيه الاتقياء . فاذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض
نفسه على مواطنيه، ويستولى بخدعة ما على جزء من السلطة العامة فسرعان
ما يصير صاحب سلطان ، واردة الله أن يطاع » . ثم انترض سؤالا وأجاب
عه فقال : « ويقال لنا : ان الجنود المسيحيين ممتازون . وأنا أنكر ذلك
واتحدى من يثبت لي ذلك . أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية .
وسأذكر لي البعض الحروب الصليبية ولكن – دون أن أناقش
قيمة الصليبيين – أقول : انهم لم يكونوا مسيحيين .

(٥) النبي محمد لعبد الكريم الخطيب ص ٤٤٥ .

بل جنود القساوسة ومواطنى الكنيسة . فالوطن الذى قاتلوا
من أجله كان وطننا روحيا . ولست أدري كيف جعلته الكنيسة زمنيا « (٦)
(أى كيف استغلت ثمرة دماء وأرواح أزهرت من أجل الروح المتسامية عن
أحوال المادة ليقام بأشلائها وعظامها بناء مجتمع مادى رخيص ؟!) .
هذه كلمات أحد أساطين علم الاجتماع وأئمه . . وشهد شاهد من أهله ،
ولا مطمع لى فى تجلية هذه الحقيقة أكثر مما قاله أهلها . . ولكننا نقول :
أما أن لمن يثقون بعقولهم ويعتزون بكرامتهم أن يكونوا مع الانصاف ويتشعروا
بالشجاعة الأدبية فيقولون بكل قوة: آمنا بالله ربا وبمحمد نبيا واماما هاديا ،
وبشريعته منهاجا قويا . ثم يكون ولاؤهم حقا وصدقا لله ولرسوله ولكتابه؟
ان كانوا كذلك فقد بدأوا طريق السعادة الذى اوله هنا وآخره فى مقعد
صدق عند مليك مقتدر .

محتويات الكتاب

الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الاول : أسلوب المستشرقين وحقدهم

(٧ - ٢٢)

- ٩ ماذا يراد بالاستشراق والمستشرقين ؟ - كيف ولدا الاستشراق ؟
 ١٠ أسلوب المستشرقين فى حقدهم - أسلوبهم فى العصور الوسطى
 ١٣ مرد الخصومة
 ١٦ بعد منتصف القرن التاسع عشر
 ١٧ التجاهل للرسول والرسالة
 ١٨ الالحاد والتشكيك فى النبوات
 ٢٠ الطعن غير المباشر

الفصل الثانى : مترجمو القرآن وكتب السيرة

(٢٣ - ٥٤)

- كتاب السيرة ومترجمو القرآن - لماذا اهتموا بالتاريخ
 ٢٥ والسيرة ؟ - لماذا اهتموا بالترجمة للقرآن
 ٢٦ ترجمة مختارات
 ٢٧ ترجمات حسب توقيت النزول
 ٢٩ دراسات حول القرآن - دراسة موسيقى القرآن واعتباره شعرا
 ٣٢ الترجمات المقارنة للقرآن بغيره
 ٣٣ علوم القرآن
 الترجمة الكاملة لمعانى القرآن - الترجمات الاسلامية -
 ٣٤ المترجم من غير المسلمين
 ٤١ لماذا اطنبت فى ذكر ترجمات القرآن ؟
 ٤٢ أشهر كتاب السيرة
 ٤٧ منصفون

٤٨	مستشرقون أسلموا
٤٩	طبيعة كتابة المسيحي
٥١	المهتمون بالطبقات الكبرى

الفصل الثالث : الشبهات المشتركة بين المستشرقين

(٥٥ - ١٠٠)

	شبهات المستشرقين - التشكيك في أصالة القرآن -
٥٧	التشكيك في قصص القرآن . انكار ارهاصات النبوة
	شق صدر النبي - عموم الرسالة - انكار الاسراء والمعراج -
٥٨	اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مؤلف القرآن
٥٩	دعوى أن محمدا صانع الاسلام
٦٠	مسيحي ينقض قول « فييت » و « جورج سيل »
٦١	مطاعن المستشرقين في اسماعيل عليه السلام - سكنى مكة
٦٤	التشكيك في زواج اسماعيل من جرهم
٦٧	الذبيح : اسماعيل ، لا اسحاق
٦٩	مهاجمة القرآن فيما أورده عن تاريخ ابراهيم واسماعيل
٧١	الوحي
٧٣	التشكيك في الوحي
	الزواج بخديجة رضى الله عنها - هل كان زواج النبي من
٨٠	خديجة لهوى مادي ؟
٨١	حديث الأفك - هل يحتمل صدق حديث الافك ؟
٨٤	وصف النبي بأنه شاعر أو ناثر مبدع
٨٧	تأثر زكى مبارك بالمستشرقين
٨٨	« جب » ودعوى تأثير البيئة في القرآن
٨٩	تأثر طه حسين بالكاتب
٩٠	تعقيب
٩١	الرد على « جب » وطه حسين
٩٢	اضطراب « بودلى »
٩٤	بطلان مقال « بودلى » - سر الصراع بين الاسلام والكفار
٩٥	وجه الخطأ
٩٦	تصوير النبي بطلا ومصلحا عظيما

- حول السور المكية والمدنية - نقض مطاعن فى القرآن الكريم ٩٧
أبرز كتب المستشرقين والردود عليها ٩٨

الفصل الرابع : الرد على « سيدىو » و « لامانس » وآخرين (١٠١ - ١٦٧)

- الرد على سيدىو : لماذا القصاص لا التسليم المسيحى ؟ -
القصاص لا يتنافى مع الخلق ١٠٣
مفتريات لامانس - من هو لامانس - نفى شجاعة النبى
والعرب ١٠٧
هل كان النبى أكولا ؟ ١٠٨
هل كان النبى يكره الوحدة ؟ - هل كان النبى نؤوما ؟ . ١٠٩
انتقاص اعلام الاسلام وأمهات المؤمنين ١١١
مهاجمة التوحيد فى القرآن ١١٢
الغرض من التوحيد ١١٤
سر الاعجاب بمحمد ﷺ ١١٥
الغرض التجارى من غزوات بدر ١١٦
اتهم عائشة بالتآمر لاستخلاف أبيها ١١٨
اتهم عائشة بالتجسس ١٢٢
الرد على مستر « كاش » - دعوى مسحة مسيحية على
محمد ﷺ ١٢٤
الرد على الدعوى ١٢٦
أهى جرائم قتل ؟ - مقتل عصماء - مقتل أبو عفك . ١٢٧
أبو سينة واليهود ١٢٨
مقتل كعب بن الأشرف - مقتل سلام بن أبى حقيق . ١٢٩
سبى نساء بنى المصطلق ١٣٠
شبهات كارليل ١٣١
سطحية العبارة أم العمق ؟ ١٣٢
التكرار ١٣٥
مقال القاسمى فى سر التكرار ١٣٧
أمثلة للتكرار ١٣٨
تكرير قصة موسى ١٤١

الصفحة

١٤٢	• • • • •	راى جوته فى التكرار
١٤٣	• • • • •	ترابط الآيات والسور - الترتيب النفسى
١٤٤	• • • • •	الآهله واتيان البيوت
١٤٥	• • • • •	غش النصيحة وخيانة الأمانة
١٤٧	• • • • •	الأخبار الاعتراضية
		شبهات المستر فرانك فوستر : تاريخ المولد النبوى - انكار
١٥٠	• • • • •	ان النبى أسمى
١٥١	• • • • •	ابتكار النشر الأدبى - انكار الجن
		هل كان النبى مشركا قبل الاسلام ؟ - هل فقد النبى صفات
١٥٢	• • • • •	النبوة ؟
١٥٣	• • • • •	هل محمد ذو مبادئ اباحية حين يعدد الزوجات ؟
١٥٦	• • • • •	ماذا ينجم عن تحريم تعدد الزوجات ؟
١٥٦	• • • • •	التلقى عن الكتابين
١٥٧	• • • • •	التكرار والاقناع
١٥٩	• • • • •	محمد خاتم المرسلين - انكار أن النبى خاتم المرسلين
١٦٦	• • • • •	دعوى استمرار النبوات
١٦٨	• • • • •	خاتمة
١٧٢	• • • • •	هل تصلح المسيحية للبشرية الآن ؟
١٧٥	• • • • •	محتويات الكتاب
